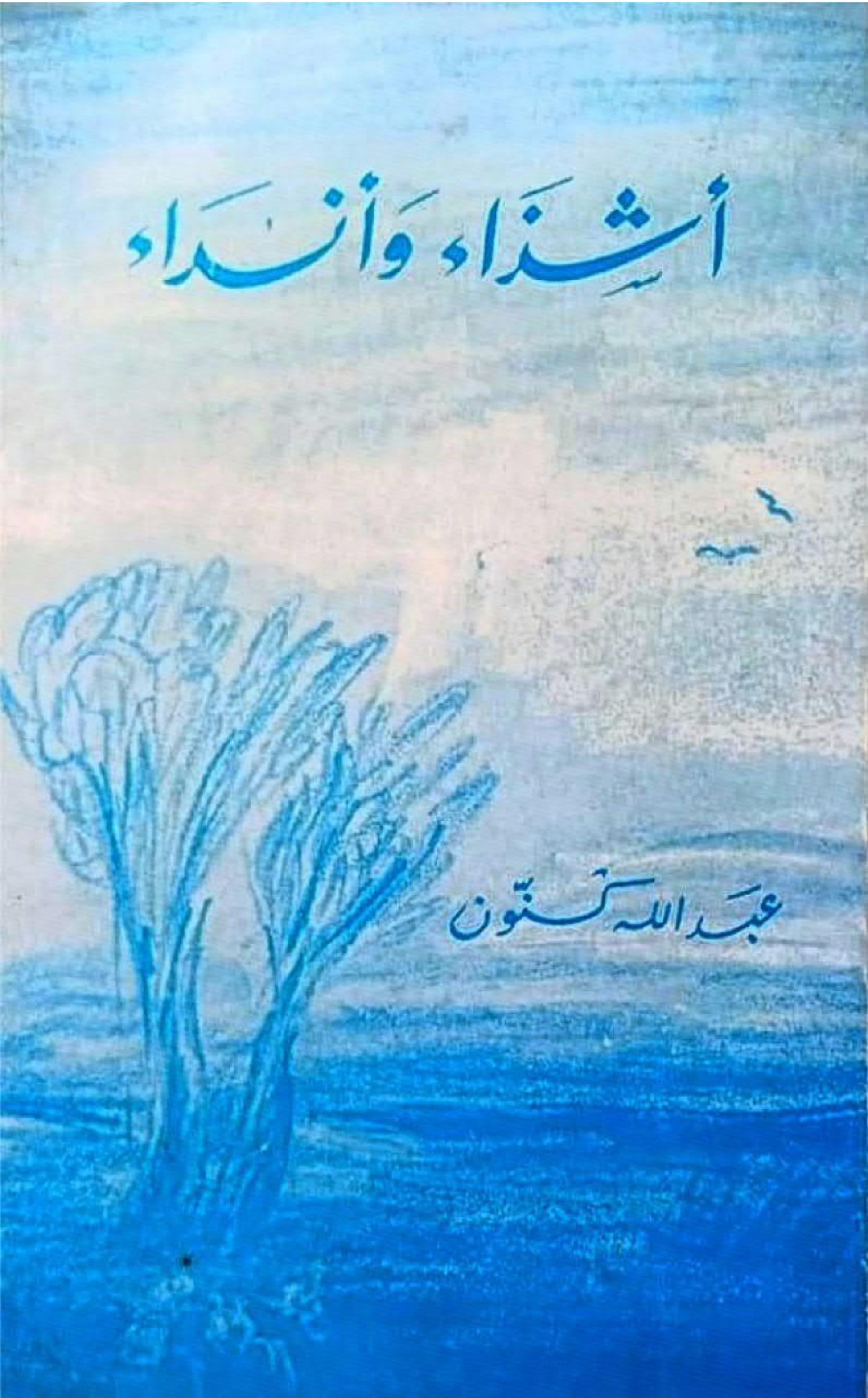

أشذاء وأنداء
عبد الله كنون

أَشْذَاءٌ وَأَنْدَاءٌ

أشذاء وأنداء

عبد الله كنون

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

مقدمة

لعل الشاعر الذي قال :

ثلاثة تجلو عن القلب الحزن ❋ الماء والخضرة والوجه الحسن

انما أقتصر على هذه الاشياء التي تنتظم في شيء واحد ، وهو أمر مادي محسوس، لأن حياته كانت متكيفة معنويا بالأدب وشؤونه فقط لا غير من جميع أنماط الفكر وألوان المعرفة .

فغير معقول أن يكون هذا القول، الا من نسج قريحة صناع لأديب ضليع مستغرق الوقت في ابداعاته وتصوراته الشعرية . وهو اذا أراد أن يريح فكره ويجم طبعه لجأ الى هذه المناظر الطبيعية التي تمتع النفس وتشرح الخاطر فلا يفتأ أن يستعيد نشاطه الذهني ويطلق لتخيلاته العنان يسرح ويمرح في آفاق أدبياته من جديد .

ونحن وان كنا نرتاح الى جمال الطبيعة ونتمتع بأشذاء

ازاهيرها عشية كما قال الشاعر الآخر :

تمتع مــن شميم عرار نجد * فما بعد العشية من عــرار

وننتعش بــرؤية قطرات الندى صباحا وهي تبلل كــؤوس الريــاحين المتفتحة بعــد اغــفاءة الليل فنسترجع من قوانــا الفكرية ما خمد وتبلد تصديقا لما قاله هذا الشاعر نفسه :

الا يا حبذا نفحات نجد * وريا روضه غب القطار

ولكننا فــي مشاغلنا الفكرية الاخرى لنا ملجأ آخر معنــوي نستريح في ظله ونستمتع برؤاه ونسترجع أنفاسنا اللاهثــة ونسترد طاقتنا المتعبة، هو هذا الادب وفنــونه وابداعاتــه العبقرية والتماعاته المشرقة ما كان منــها في رياض الشعــر وفي حدائق النثر على تنوع أوضاعه من قصة ومقامة ومقالــة ونقــد وبحث طــريف خفيف يلــهيــنــا ولا نــملــك الا أن نقبل عليه بشغف لما نجد فيه من متعة للذهن وسكينة للنفس وشحذ لملكة الابداع .

وهذا ما يجعلنــا نجدد علاقتنا بهــذه الموضوعات الادبيــة ونعطي لها مــن حين لآخر بعض الاهتمــام أو جله ، كــما اذا كان التعبير بالنثر لا يسع الغرض المطلوب فنتعلل بالشعــر الذي يكتــفى فيه بالاشــارة واللمحة . أو كان الموضوع انمــا

يؤدى بالمثال والايحاء لا بالبسط والتقرير فنفضل الاقصوصة التي تشخصه للكبير والصغير وقل في مقتضيات المقالة والبحث المقتضب ما يناسب كلا منهما .

وعلى هذا المنوال أصدرت مما تجمع لدي من الشعر ديوانين صغيرين أحدهما يحمل اسم لوحات شعرية والثاني ايقاعات الهموم والثالث فى الطريق ان شاء الله، ومن النثر خمس مجموعات الاولى باسم التعاشيب والثانية باسم واحة الفكر والثالثة بعنوان خل وبقل والرابعة بعنوان العصف والريحان والخامسة بعلم أزهار برية وهذه السادسة التى أطلق عليها علم أشذاء وأنداء .

فهل ينسأ الله في العمر حتى أعززها بسابعة وما يشاء الله بعد ذلك، ان الله على كل شيء قدير .

وعلى سبيل التذكير نقول ان الموضوع العام في هذه المجموعات هو الآدب والنقد من غير تقيد بمغرب آو مشرق . أما الأدب المغربي من اهتماماتي الاساسية فقد خص بمؤلفات معروفة وكذا الدراسات الاسلامية والتاريخية والاجتماعية ، وعلى الله قصد السبيل وهو سبحانه وتعالى ولي التوفيق والهادي الى سواء الطريق .

العربية امس واليوم

من الكلمات الحكيمة التى كثيرا ما تجرى على لسان علمائنا قولهم: من كثر علمه قل اعتراضه وتنطبق هذه الكلمة على كل من يحشر نفسه فيما لا المام له به من مسائل العلم واللغة والادب، فيسيىء الى نفسه والى الناس بما يظهر من جهله وخطله، وما يثيره من بلبلة فى الرأى وخطأ فى الحكم ومن هذا القبيل الحملة التى يشنها بعضهم على اللغة العربية باتهامها بالقصور عن مجاراة التطور العصرى الحاصل فى العلوم والفنون حتى آصبحت فى عداد اللغات الميتة كاللاتينية واليونانية القديمة والمعتدل من هؤلاء من يقول انها لغة أدبية لا تصلح للعلم فعلى العرب أن يصطنعوا احدى هذه اللغات الاجنبية التى برزت فى مجال التقنية والحضارة الحديثة كى يسايروا ركب الامم المتقدمة والا بقيت بلادهم بمعزل عن التطور والرقى المنشود، وآثرت هذه الدعاية فى كثير من قادة الفكر ورجال العلم عندنا فأدعوا ان تلقين العلوم بالعربية غير ممكن واصروا على بقاء الجامعات فى العالم العربى وخاصة

(1) بحث آلقى فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة الدورة 44 ربيع الثانى 1398 مارس 1978 .

الكليات العلمية منها جامعات أجنبية اللغة الا ما ندر منها :

والذين لم يتجرأوا على اتهام اللغة العربية ذاتها بالقصور سلكوا طريقا آخر للهدم والتشكيك في قدرتها على أداء رسالة التنوير والتثقيف للشعب العربى الامى: التى هى رسالة كل لغة حية فقالوا ان حرفها بعيد كل البعد عن الاستجابة لهذه الرسالة، فهو غير مشكول وبسبب ذلك يقع القارىء العربى فى كثير من اللبس ولا يفهم المعنى المراد بسهولة وأن عليه أن يفهم قبل أن يقرأ قراءة صحيحة فصار الحرف غاية بعد أن كان وسيلة، ومن ثم فما على العرب الا آن يستبدلوا بحرفهم، هذا الحرف اللاتينى المضبوط الذى لا يجد القارىء صعوبة فى قراءته لان الحركات التى تشكله هى من صميم كتابته وتخطيطه

ولعل هؤلاء — ولا أتهم أحدا — انما يقومون بدور الطليعة للآخرين فى هذه المعركة الحاسمة التى يريدون أن يقضوا بها على اللغة العربية القضاء المبرم.

ومن غير آن أقول جديدا فأن دعوى قصور اللغة العربية عن مواكبة التقدم العلمى والحضارى فى العصر الحديث، جدير بها آن لا تسمع لمخالفتها للواقع ولان ماضى هذه اللغة يكذبها... فالواقع انه منذ انبثاق عهد النهضة بوطننا العربى

فى مطلع هذا القرن، والعربية تؤدى وظيفتها على أكمل وجه فى الميدان العلمى والادبى على السـواء، فقـد نقلت اليها روائع الفكر والفن من الادب الاوربى على اختـلاف لغاته من فرنسية وألمانية وانجليزية وروسيـة واسبانيـة وايطاليـة وغيرها ولم تضق ذرعا بشىء منها واطلع القارىء العربى من خلال الترجمة على الاعمال الادبية لنبغـاء الكتاب والشعـراء الغربيين وكذا على الكتب الرائدة فـى الفلسفة والاجـتماع والتاريخ لاعلام الفكر المعاصر ومـن قبلهم من عصـر النهضة الاوربية الى الان .

ولم يكن حظ العلم والمعرفة الصحيحة بأقل من حظ الفلسفة والادب فبعض جامعاتنا تدرس العلـوم باللـغة العـربيـة، والمتمكنون من علمائنا وضعوا مئات الكتب ان لـم أقل آلافها فى فروع العلم المتنوعة باللغة العربيـة، وهذا الى عشرات المعاجم المختصة بالطب وفنونه والطبيعـة وأسرارها، بحيـث يصح القول ان لغتنا الضادية تسير مع نهضتنا جنبا لجنب وأننا لا نتقدم خطوة فى سبيل التطور الفكرى والعلمى الا وتكون اللغة أمامنا آخذة بزمامنا لا نفتقدها فى مرحلة ولا مجال .

ولغة هذا شأنها لا تكون ميتة، والعربية لن تمـوت أبدا

حتى يموت العرب كلهم، لا قدر الله ولـذلك فأن تشبيهـها باللاتينية أو اليونانية هو من باب المغالـطة، ذلك ان هـاتين اللغتين غيـر ميتتيـن، والدليـل على ذلك أن اللغات الاوربية الكبيرة ما تزال تستمد منهما وترجع اليهما تلتمس عندهما أسباب النمو والحياة، فان أريد بموتهما انهـما أصبحتا غير مستعملتين فى التخاطب والكتابة، فأن ذلك صحيـح والسبب بسيط وهو تخلي أهلهما عنهما، فكيف يقـال أن العـربية لغة ميتة وأهلها لا يبغون بها بديلا وهم يبذلون فى سبيـل نموها وازدهارها النفس والنفيس وقد حقـقوا من ذلـك أغـراضا بعيدة وما يزالون يعملون على احلالها المحل اللائق بهم بصفتهم أصحاب رسالة وبناة حضارة وخير آمة اخرجت للناس

نعم ان ما يهدف اليه أولئك الخصوم هو جعلها فعلا مثل اللاتينية واليونانية بحمل آهلها على نبـذها واصـطناع لـغة آجنبية عنهم كالانجليزية فى الشرق والفرنسية فى المغرب بآمل التطور والتقدم وذلك ان آرادوا ان يسـلكوا الـطريق القاصد والسبيل اللاحب .

على أن دعوة أخرى مدسوسة كثيـرا ما يروجها الخـصم بينهم، وهى ترمى الى الغاية نفسها، ومن المؤسف آن يتبناها

بعض أبناء العرب وينساقوا فى حبلها جاهلين أو عارفين بما تؤدى اليه من تقسيم الامة العربية وفصم هذه العروة الوثيقة التى تجمع بينهم، وأعنى بها الدعوة الى احلال العامية محل الفصحى، وذلك هو ما حصل للغة اللاتينية بالضبط، حين تحولت لهجات الشعوب المتكلمة بها الى لغات فماتت هذه اللغة موتا معنويا، وحلت تلك اللهجات محلها فصارت الامة الواحدة امما متعددة وما يفرق بينها أكثر مما يجمع وأخصه اللغة .

ويشهد ماضى العربية الزاخر بالفتوحات العلمية والفلسفية والادبية أنها لغة حية متطورة باستطاعتها آن تحتوى جميع أنماط الفكر الانسانى وتستوعب كل قضايا المعرفة الكونية من علوم رياضية وطبيعية تجريبية وتطبيقية وقد تفتحت على ثقافات الامم والشعوب التى سبقتها وحضارتها فأخذت منها كل صالح نافع وأضافت اليها ما ابتكرته وأبرت به على تراث العالم القديم فما قصرت ولا عجزت عن مطلب أو مرام.

بل كانت اللغة الاولى فى العالم، وكانت الامم والشعوب المعاصرة لها تقتبس منها وتستنير بها وتعتبر أدبها هو الادب وتفكيرها هو التفكير، حتى ارتفعت الشكوى فى بعض بلاد

الغرب من اقبال شبابها على اللغة العربية وهجر لغتهم القومية هذا على حين أن الانتقال اذ ذاك كان من عـربية قاصرة على بعض أغراض الحياة التى تقتضيها ظروف العزلة المفروضة على جزيرة العرب قبل الاسلام، فكيف الان والعربية تجر وراءها هذا التاريخ الحافـل بالمجد العلمـى والادبـى، وأبنـاؤها يعملون ويكدون ليل نهار فى خدمتها ودفع الضيم عنها..!

واذا تبين أن دعوى قصور اللغة العربية فى المجال العلمى لا نصيب لها من الصحة، فأن دعوى أنها لغة أدبية غيـر علمية كذلك لا تصح، ضرورة أن اللغة اذا كانت ناجحة أدبيـا فلابد أن تنجح علميا، لان المادة العضوية للغة هى الادب فهو الذى ينميها ويمدها بنسمة الحياة، وليست هناك لغة علمية لا أدب لها، ويكفى العربية دليـلا على رسوخهـا فى مجال الـعلم أن مفرداتها ومصطلحاتها العلمية تشيـع فى لغـات أكثـر الامم تفوقا فى حلبة العلم والتكنولوجيا وهى مما أقتبسته منها فى عصر النهضة الاوربية، ولم تجد عنها غنـاء حتى الان بـل ان بعض العلوم انما يعرف باسمه العربى فى جميع اللغات وهو علم الجبر ومن الغريب أن يدعى هؤلاء عـلى اللغة العربية ما ادعوا وعندنا من يقول ان من المشكلات التى تواجهها العربية

تعدد المصطلحات العلمية التى نشأت من اختلاف المجامع اللغوية وأساتذة الجامعات فيما يضعونه من أسماء متعددة للمصطلح العلمى، وهذا على ما فيه أعظم حجة لخصب اللغة العربية وعطائها الجزيل، وقلت على ما فيه لانى أرى فى هذا القول مبالغة كبيرة، فالتعدد المزعوم لا يزيد على 5 الى 10 فى المئة من المصطلحات الموضوعة وهو علامة صحة أكثر منه علامة ضعف فان بعض المصطلحات التى يقع فيها خلاف تحتاج الى فترة من الزمن تخضع فيها للتجربة والاختيار، وعندها يفرض المصطلح المختار نفسه وعلى أى حال فواقع اللغة العربية ليس كما يتقول الخصوم، بل هو فى ازدهار مستمر بفضل الجهود المبذولة من أبنائها المتفانين فى خدمتها، حتى أن بعض المصطلحات العلمية الجديدة تتعدد وتتكرر لاختلاف نظر واضعيها، وهو أمر شبيه بما وقع لاوائلنا فى عهد الترجمة الاسبق فان منهم من كان يجنح للتعريب ولو فى الكلمات الواضحة الدلالة بالعربية فيقولون (آرتماطيقى) فى الحساب و (فيزيقى) فى الطبيعة وما أشبه ذلك ولكن البقاء دائما انما هو للاصلح

ونخلص للكلام على الحرف العربى الذى اتهم بما اتهم به، فانه بحسب نظر الفنانين الاجانب من الرسامين والمتخصصين

فى اعمال الزخرفة بعد من آجمل الخطـوط أو اجملها عـلى الاطلاق، حتى انهم من فرط الاعجاب بأوضـاعـه واشكـاله المنسجمة مع المعمار العربى الرائع يحلـونه محل التـصوير الذى لم يعن به العرب لتحريم الاسلام له، ويجعلون ابداعهم فى النقش والكتابة مقابل مافاتهم مـن الابداع فى التصوير والتمثيل.

هذا من حيث الشكل، وأما من حيـث الفائدة فـلا ننسى اشادة المستشرق الفرنسى لويس ماسينيون بالحـرف العربى وتوصيته للعرب بتمسكهم بحرفهم الذى لا يعدلـه حرف آخر. وهى الحقيقة التى لا مرية فيها، فـان كثيـرا مـن الحروف العربية لا يوجد لها نظير فى الحـرف الـلاتينى الـذى يراد استبداله بالحرف العربى ومنها الحاء والضاد والظـاء والعين والغين والقاف. ومهما عدل هذا الحرف أو ذاك ليصـبح دالا على المراد منه فانه يبقى بعيدا عن النطق الحقيقـى لمنوبه العربى. نأهيك بأن عدد الحروف اللاتينية أقل مـن الحروف العربية.

وأما أن القارىء العربى يلزمه أن يفهم الكـلام قبل أن يقرأه قراءة صحيحة، فان هذه سفسطة مردودة على أصحابها، واى كـلام لا يـحـتاج الـى الفهـم ليقرأ قـراءة صحيـحة،

فالانسان فى حالة الشرود الذهنى يمر بسطـور عديدة بل بصفحات من غير أن يعرف كيف قرأها لانه لم يفهمها، وليس كل كلام يفهم بمجرد قراءته ولو كانت القراءة صحيحة.

فالواقع أن الحملة على العربية سخيفة بقدر مـا هى دنيئة ولذلك فانها وأن أحـدثت بعض البلبلة فى بعـض الافكار لم تنل من العربية الشامخة الا كما يناله قرن الوعل من الصخرة الصماء .

ولست فى حاجة الى بيان ما فـى الحرف اللاتينـى من نقص واشتباه كثيرا ما يفضى الى الارتباك والخطأ فى كتابته وقراءته، فالكاف مثلا فى الفرنسية له ثلاثة أحـرف أحدهما مركب من حرفين. والسين كذلك له حرفان أحدهما هو احدى صور الكاف ثم تارة هو سين وتارة زاى وتـارة مضعف ولكن يقرأ سينا مع عدم التضعيف. وقل مثـل ذلك فى حـرف الهاء الذى يركب مع الباء فيصير فا، وبذلك يصبح للفاء حرفان، ويركب مع الحرف الذى يستعمل كافا وسينـا فيصير شينا. ولا صورة للشين الا هذان الحرفان ثم تارة يكون زائدا لا نطق له وتارة رافدا للحركة وهلم جرا والـيـاء ان كان لهـا حرف مخصوص الا أنه يستعمل حركة أيضا، ويعبر عنها تارة بحرف الجر مع لا مين وتارة بحرف الجيم والنون وهو من أغرب ما

يرى ولا أستمر فى ذكر هذه العجائب لانكم تعرفونها، ولكن المتهجمين على الكتابة العربية يتجاهلونها ويكونون كالجمل الذى لا ينظر حدبته ويتعجب من حدبة أخيه ...

أضف الى هذا ان الكتابة اللاتينية عبارة عن ثلاثة خطوط لابد للقارىء من أن يتقنها جميعا وهى أولا خط اليد وثانيا حروف المطبعة وثالثا حرف التاج فى خط اليد وفى المطبعة وبين هذه الخطوط فروق كثيرة لاتعرف الا بالممارسة وطول المعاناة.

واذن فان ما يوخذ على الحرف العربى انما هو قل من كثر مما يوخذ على الحرف اللاتينى الذى يراد استبداله به سواء فى صورته أم فى افادته ومادام المدار على التمرين وكثرة التعهد والتلقين فان ما ينقصنا نحن العرب هو الرجوع الى الخط الذى سار عليه أسلافنا فى تعليم اللغة لابنائهم ولابناء الشعوب التى دانت لهم من غير العرب، انهم لم يكونوا يعلمونهم النحو ابتداء كما نفعل اليوم، فالنحو هو ضابط اللغة، واذا لم تكن عند المرء حصيلة من اللغة فأى شىء يضبط؟

كان القرآن أول ما يحفظه الناشىء كلا أو بعضا، وكانت النصوص الادبية الاخرى مثل المعلقات وخطب بلغاء العرب

وأشعار الفحول من شعراء العصر الاموى والعباسي هي الزاد الذي يدخره الناشىء للإنفاق منه طول حياته في مجال التعبير، وانما الكلام من الكلام، ويأتي النحو بعد ذلك مع بقية العلوم وهذه الطريقة هي المتبعة في تلقين اللغات عند غيرنا ولاسيما منها ما كان اعتماده على النطق أكثر من اعتماده على القواعد، ومع أن الشكل قد يعصم من اللحن ولكن اللسان إنما يجرى على ما سبق له النطق به: ولذلك يبقى الشكل في بعض المراحل من التعليم وفي بعض المفردات والجمل فقط، مما يستعان به وليس هو العمدة فلنكثر من القراءة ولنكتف من النحو بما تقضى به الضرورة علما بأن القواعد تنسى ولكن استقامة اللسان على النطق لا تعتريها آفة.

ولنا في الذين أخذوا بهذه الطريقة خير مثال ونذكر منهم الاستاذين مكرم عبيد في مصر وفارس الخورى في سوريا وهما غير مسلمين ولكنهما كادا يكونان من حفاظ القرآن لكثرة قراءتهما له وتعهدهما لتلاوته فأصبحا بذلك من أبلغ الخطباء العرب وأفصح الناطقين بالضاد، وغيرهما من المشائخ والاساتذة كثير ...

وتحضرنى هنا كلمة للامام مالك قالها في غير ما نحن

فيه ولكنها واردة علينا وهى قوله: (لا يَصلح آخر هـذه الامة الا بما صلح به أولها) أى المحافظة على أصالتها فكـل اصلاح لا يتوخى معنى الاصالة والانطلاق مما انطلق منه بناة كياننا الاولون، يجب أن نحذر منه ونعلم مسبقا أنه انما يهدف الى إضعاف مقوماتنا ومحو شخصيتنا ليسهل عليه استتباعـنا فيما بعد:

وانى أعتبر العمل الذى نقوم به فى هذا المجمع والمجامع الموازية له هو السبيل الوحيد لكمّ الافـواه المتقولة وإبـطال الدعاوى المتجنية، وكلما سرنا فى هذا الطريق قربنا المسافة المبلغة الى الغاية المطلوبة: فعلينا أن لا نلتفت الى المشاغبين والمعوقين ولو بالرد عليهم، فان أعـظم رد هو هـذه القوائم التى تقدمها مختلف لجان المجمع كـل عام بمئات المصطلحات وعشرات المقررات وانى لذلك لا أستحسـن شغل الاساتـذة الاعضاء بتناول الاشـكالات والايرادات التـى يوجهها الخصوم الى اللغة العربية، وجعلها الموضـوع الاول للبـحـوث التـى يقدمونهـا للمجمـع: فكـم مـن بحث لغـوى أصيل يفوتنـا باشتغالهم بهذه الموضوعات الممجوجة المملولة التى انما يريد أصحابها بطرقها فى كل مناسبة أن تتكرر من اجـل ان تتقرر ومن عادات السادات معادة المعادات.

هل كان شارل مارتيل وراء وقف المد الاسلامي باوربا

بدأت مسيرة الفتح الاسلامى فى أوربا سنة 92هـ بحملة طارق بن زياد على اسبانيا، حيث نازل ملك القوط بجيش من المغاربة قوامه اثنا عشر الف مقاتل، فتم له فتح البلاد فى ظروف أكثر من مواتية. وكان ذلك حافزا لمولاه موسى ابن نصير، والى افريقية من قبل الخليفة الاموى الوليد بن عبد الملك، على عبور البحر الى الارض المفتوحة التى سميت بالاندلس ومواصلة الجهاد الى أن دخل «الارض الكبيرة» وهى فرنسا كما كان المسلمون يسمونها. ويقول بعض المؤرخين أن مقصد موسى بن نصير أو الفاتحين المسلمين على العموم كان هو الانطلاق فى أوربا من غربها الى شرقها حتى القسطنطينية عبورا بآسيا الصغرى وانتهاء الى عاصمة الخلافة دمشق. وقد تابع الولاة الذين خلفوا موسى بن نصير على افريقية، حركة الغزو والتوغل فى أراضى الفرنجة وبخاصة جنوبى فرنسا حتى وصلوا الى نهر الرون وتمركزوا فى مدينة أفينيون وهى التى يسميها العرب أربونة. وكانت تحركاتهم تتوقف تارة وتنبعث أخرى، بحسب الوضع الامنى

الذى تكون عليه بلاد الخلافة اعتبارا من الشام الى افريقية والاندلس.

وفى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك كان الوالى على افريقية والاندلس هو عبيدة بن عبد الرحمن السلمى، فاستعمل على الاندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى، وكان شجاعا مقداما فغزا فرنسا وأوغل فى أرضها واصاب غنائم كثيرة، فكتب اليه عبيدة بيتهدده، فأجابه عبد الرحمن بما نصه «أما بعد فإن السموات والارض لو كانتا رتقا لجعل الله للمتقين منها مخرجا»

ثم مضى فى سبيله غازيا لا يلوى على شىء حتى قتل هو ومن معه من الشهداء، سنة 113 وقيل 114هـ وهذه الغزوة التى استشهد فيها عبد الرحمن هى التى تعرف بواقعة بلاط الشهداء وقد جرت فى سهل بواتيه بفرنسا بينه وبين شارل مارتيل الذى يسميه المؤرخون المسلمون قارله.

وشارل هذا كان حاجبا متحكما فى قصر الفرنجة وسعى فى توحيد ممالكها، وهو جد شارلمان الشهير الذى كانت بينه وبين هارون الرشيد علاقات ودية، وكان مقاتلا جريئا تصدى للغزو العربى وانتصر على عبد الرحمن الغافقى فى

المعركة المذكورة، وطارت له بذلك شهرة عند الافرنج ولقب بمارطيل أى المطرقة لشدته.

ويعتبر الاوروبيون واقعة بواتى هذه، من المواقع الحاسمة بين المسيحية والاسلام، ويقول مؤرخوهم انها التى أوقفت تقدم المسلمين فى أوربا وأن شارل مارتيل هو منقذ المسيحية فى الغرب من اكتساح الاسلام لها، بانتصاره فى هذه المعركة وهزيمته للعرب. واذا كان للمؤرخين الأوربيين أن يقولوا ما شاءوا بدافع التعصب والإكبار من شأن هذا النصر الذى اكتسبه شارل مارتيل في واقعة حربية عادية جرى قبلها وبعدها بين الطرفين كثير من أمثالها، فالعجب من بعض مؤرخينا المحدثين الذين يتابعونهم فى رأيهم ويؤكدون النتيجة التى بنوها على هذه الواقعة ويساهمون في عقد اكليل الغار على رأس شارل مارتيل من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

ان شارل مارتيل لم يوقف تقدم المسلمين فى أوربا ولم يكن ذلك باستطاعته ولو حاوله، لان المد الاسلامى كان أقوى منه لو استمر كما بدأ، ولم يقفه ما جعله يتوقف، ريثما تعود كلمة الاسلام الى جمع، وأمر المسلمين الى سداد،

وقد كان المسلمون يتعرضون لازمات داخلية فيتوقفون ثم يراجعون سيرتهم الاولى ولكنهم توقفوا نهائيا لعوامل وأسباب مختلفة من حروب وفتن فيما بينهم، أضف الى ذلك بعد العاصمة ومركز القوى الدافعة عن مواطن القتال في غرب أوربا... فالخلاف بين الولاة فى الاندلس وبين عناصر السكان من مغاربه وعرب، وتزعزع كرسى الخلافة الاموية فى المشرق، ثم قيام الدولة العباسية وانقطاع المدد الحربى عن هذه الواجهة الكبيرة، مع ما انضم الى ذلك من مواصلة الغزو فى أراضى افرنجة، كل ذلك يجب ان يحسب له حسابه في توقف الفتح الاسلامى فى فرنسا وغرب أوربا وليس لشارل مارتيل فى ذلك من يد الا موافقة الظروف ومساعدة الاحوال فى مواقعة العرب على حين ضعف وقلة استعداد، وهى جولة حربية كان من الممكن أن تجدد على يد قائد آخر غير عبد الرحمن وتكتسب، ويكون لها ما بعدها لولا هذه الاحداث الكبرى التى حصلت فى المحيط الاسلامى وعاقت الغزو عن الاستمرار ولا ننس من عوامل الهزيمة فى هذه الواقعة ما ألمحنا اليه من مغاضبة عبد الرحمن لوالى افريقية ومضيه فى غزواته بدون موافقة رئيسه الامر الذى يجعله غير متمتع بمساعدة

السلطة العليا للبلاد، وهذا يعنى أن قـوته لم تكـن بالقدر الكافى، عددا وعدة، لمواجهة خصم قوى شرس فى عقر داره، على خلاف ما يدعى المؤرخون الاروبيون من أنهـا كانت تعد بعشرات الالاف، وهكذا يبنون من الحبـة قبة ويضفـون على معركة بواتيه صفة المعركة الحاسمة بين الاسـلام والمسيحية، ويصبح شارل مارتيل فى التاريخ الاروبـى بطـلا خـالـدا وأسطورة انتصاره على العرب موضـع تقدير حتى مـن بعض كتابنا مع الاسف.

محمود حسن اسماعيل

الشاعر المصرى الذى توفى فى الكويت

لحى الله الايام على تقلبها وتنكرها للفاضلين من أهل الفكر والادب والعلم؛ ولحى الله الايام على ما حجبت عنا بثورتها المزعومومة على الماضى من محاسن ذاك الماضى ومباهجه فمن كان يظن أن هذا الشاعر المصرى الكبير المشغوف بوطنه مصر العروبة والاسلام، ريفا و نيلا ومصدر اشعاع عبقرى خالد، يموت غريبا عنه فى طلب القوت على كبر سنه؟ ومن كان يقول ان هذه النخبة الممتازة من أدباء مصر وكتابها وشعرائها التى ملأت في حقبه من الزمن، حيزا كبيرا من أفكارنا وشغلتنا طلبة وأساتذة بابداعها وعطائها الخصب، يغيب عنا خبرها حتى نتلقى نعى أحد أعلامها بعد أشهر من وفاته، وقد كانت لا تفارقنا لحظة بما نقرأه لها وعنها فى الصحافة الادبية المصرية التى كانت ملء السمع والبصر وغذاء العقل والروح.

فهل نحن فى تقهقر يسمى تقدما، كما تسمى الهزيمة اليوم انسحابا فنيا، أم ماذا ؟

نعم توفى الشاعر محمود حسن اسماعيل صاحب ديوان أغانى الكوخ وهكذا أغنى، وغيرهما من الدواوين التى تزيد على العشرة، بالكويت فى شهر أبريل الماضى، ولم نعلم بالخبر الا الآن، فى أواخر يونيو لان هذا التقدم التقهقرى الذى أحاط بكل شىء حتى بالحياة الثقافية. جعل المجلة لا تصل الينا الا بعد شهور من صدورها والكتاب انما نحصل عليه بطريق التهريب، ومن ثم فأن أكثر دواوين الفقيد التى صدرت فى (العهد الجديد) لم نعرف منها الا الاسماء.

وبالرغم من ذلك فقد عرفنا محمود حسن اسماعيل شاعرا أصيلا حفيا بالكلمة العربية معتزا بحرفه الاسلامى مجددا فى غير اسفاف، لسان حال الطبقة المحرومة المعبر عن آلامها بابداعية مطواع فهو لم يضطر قط الى حمل صليب يلفت به الانظار حين يعوزه التعبير ولم يلجأ ابدا الى تحطيم المعايير والموازين المتعارفة ليقول انه يطور ويجدد، وبذلك انتشر شعره على صعيد العالم العربى وجرى على لسان الناطقين بالضاد من الخليج الى المحيط:

يقول فى قصيدته المسلمون

من هؤلاء الخانعون ؟ أفهؤلاء المسلمون ؟

أبدا، تكذبنى وترجمنى الحقائق والظنون !

انـا منهـم لـكـنـنـى | نغـم بسمعهـم شـريد
ربـضت به الاصـفاد بل | طحنتـه غمغمة العبيـد
وجـؤار شرق مبـدىء | بأنيـن أمته مـعيد
ابكـى عـليهـم ام عـلى | غـل يكبلنـى شـديـد
آنـا هـجرنا اللـه هـجـرتنـا لشيطـان مـريد
عات | تروضنـا | حضا | رتـه لكـل هوى مبيـد
ولكل من يحمى لنا الاسـلام فـى كـفن جـديـد
نسجتـه أخيلـة العـصو | ر السود منذ زمن بعيـد
لتحيـل ديـن مـحـمـد | وهما عـلى نعش مجيـد
واذا الجـنـازة لـوعـة | حـرى مـشيعها سعيـد

فلنتأمل هذا التصوير الشجى لحـال المسلـمين الـذى لا يدركه الا من كان يعيش فى ضمير الاسـلام الحـق، ويـرى المؤامرات التى تدبر للاجهاز عليه باسم الفهم الصحيح لدعوته وبعثه من جديد.

ويقول فى قصيدة ثورة الاسلام فى بدر.

من فجاج الغيـوب هاجت صباحا
ثورة فـى الرمال هبت تـزمجر
قيل (بـدر) فزلزلت هـدأة النا
س وكـاد النشيد بالدم يقـطر

أقبلت كالعجاج فـي هبوة الحر

ب (قريش) عـلى العياض تنفر

كـل ذى سحنة كغفا شيـة الليـ

ل وهـول يرتاع منـه الغضنفر

يتنـبزى بـسيفـه مـن ضـلال

هو أعمى لديـه والسيـف مبصر

عجبـا للحديد يهـدى الـى الحـ

ق وهاديـه كالضريـر المـحير

وعـلى التل خاشع فـى عريش

قدسى الظلال زاك منور

هالـة تسكب الجـلال وتنـدى

بوميض الهـدى يفيق ويسحر

لو رمت كأسبف البصيـرة أعمى

عاد منهـا مبلـج القلب أحـور

قسمـا مـا أراه انسـا فأنـى

اتحـدى بـه بنـان المـصور

رحمك الله يا محمود : و نحن نتحـدى بـك عاصـفة من الضوضاء تسمى اليوم شعرا.

سيـــداتى ســـادتى

جاء فى الكامل للمبرد ج ثى ص 146 مايلى:

عاد الحـديث الى أمر الخوارج وكان من المجتهدات من الخوارج ولو قلت مـن المجتهدين وأنت تعنى امرأة كان افصح لانك تريد رجالا ونساء هى احداهم، كما قال الله عز وجل (وصدقت، بكلمات ربها وكتابه وكانت مـن القانتين) وقال جل ثناؤه (الا عجوزا فى الغابرين) منهم البلجاء وهى امرأة من بنى حرام ــ الخ .، فقال المبرد منهم ولم يقل منهن

واذا كان هذ فى جمع السلامة المبنى على الفرق بيـن الذين واللواتى ــ على حد تعبير الرصافى ــ فأنه فـى جمع التكسير الذى لا يراعى فيه ذلك الفرق أحروى ولا شك.

وبذلك يعلم أن قولنا فى المحـاضـرات وفـى الاذاعـة: سيد اتى سادتى لا لزوم له اذ يغنى ان نقول سادتى او ايها السادة فتدخل السيدات فى ذلك من غير ان يكون عليهن فى الامر غضاضة، كيف وهو اسلوب القرآن الكريم.

نعم اذا كان الخطاب خاصا بالنساء لا يشترك فيه غيرهن

فحينئـذ يحسـن استعمـال جمع المؤنث السـالم وان صح ان يحل غيره محله .

والذين يلتزمون بغير هذاالخطاب انما يقلدون الاجانب في اقوالهم كما يقلدونهم في أعمالهم ينسون ان اللغة الاجنبية التي يحاكونها يختلف فيها لفظ الخطاب للنسـاء عن لفظ خطاب الرجال: (ميدام ميسيو) Mesdammes Messieurs

وهاهنا لطيفة وهي أن جمع التكسير اذا كان بعموم معناه يشمل الجنسين فانه بخصوص لفظـه يعتبر مؤنـثا ويعـامل معاملة المؤنث في لحوق التاء بفعله وصفته كـما قال تعالى (قالت الاعراب) وقال (اذكروا الله في أيام معدودات) ومن ثم قال الشاعر :

ان قـومـا تجـمـعـوا	وبـذمـى تحـدثـوا
لا أبـالـى بجـمـعـهم	كـل جـمـع مـؤنث

ادبيـــات رمـضـــان

لشهر رمضان فى الحياة الدينيـة والاجتـماعـية عنـد المسلمين تأثير خاص، ينعكس بمظاهره المختلفة على أعمال الادباء ولاسيما الشعراء انعكاسات ذات ظلال لطيفة وألوان جميلة واذا قسمنا الشعراء الى فريقين، فتاك ونساك، نجد فى الفريق الاول أبا نواس الذى اشتهـر من شعـره بيـن الفتاك قوله :

اذا العشرون مــن شعبان ولت

فواصـل شــرب ليلـك بالنهار

ولا تشــرب بأقـداح صـغـار

فقد ضـاق الزمان عـن الصغار

ذلك أن هذه الطبقة من الناس كانت تحتـرم رمضان، فلا تجترم تناول الخمر فيه احتراما له واعتدادا بأنه شهر عبادة ونسك فلا تنتهك حرمته، وانما تحـاول أن تشفى غليـلها قبل حلوله بمواصلة الشرب ليل نهار وبالاقداح الكبار، حتى اذا انصرم بادرت الى ما كانت عليـه قـبـل مـن التهتـك والانهماك كما قال شوقى.

رمضـان ولى، هاتـها يا ساق

مشتاقة تسعـى الـى مشتـاق

ورحمة الله على الفتاك من هذا القبيـل، فإنهم عـلى كل حال كانوا يحترمون شهر رمضان .

ويقابل هذا الفريق فريق النساك، وهـم يعتبـرون شهر رمضان موسم عمل وتجارة وفلاح، تجـب المبادرة فيـه الى التوبة وتدارك ما فات، وذلك هو ما يعبر عنه بعضهم بقوله:

ياذا الذى ما كفاه الذنب في رجب

حتى عصى ربه فى شهر شعبان

لقد أظلك شهر الصـوم بعدهما

فـلا تصيره أيضا شهر عصـيان

واشتهر من قول هذا الفريق فى صيانة شهـر الصوم عن اللغو والرفت على ما جاء فى الحديث الشريف، بيتا ابى بكر ابن عطية:

لا تجعلن رمـضان شهـر فكاهة

تلهيك فيه مـن الحديث فنونه

واعلـم بأنك لا تـنال ثـوابه

حتـى تكون تصـومه وتصـونه

ويظهر أن الامام ابن عطية كان مهتما بأخلاقية رمضان فلذلك قال فى الموضوع بيتين آخرين مشهورين أيضا:

اذا لم يكن في السمع منه تصاون
وفى بصرى غض وفى منطقى صمت
فحسبي اذ ن من صومى الجوع والظمأ
وان قلت انى صمت يوما فما صمت

وفى البيتين جناس تام، وهو مما يدل على براعة صاحبهما الادبية بالاضافة الى امامته فى الحديث والتفسير وهذا على أن الصمت بضم الصاد كما نقله ابن منظور فى اللسان وأما على أنه بالفتح كما يفهم من اطلاق صاحب القاموس فالجناس محرف

وهذه النظرة الاخلاقية التى كان المتقدمون يعللون بها الصيام، أضيف اليها اليوم التعليل بالتجربة العملية لما يعانيه الفقير من الجوع وقلة المؤونة ليكون باعثا للصائم على الاحسان والمواساة، وفى ذلك قلت من زمن بعيد:

ان الصيام مواساة واحسان
قضى بذلك قرآن وبرهان
نعم الصيام مع المعروف تبذله
وبيس فيه مع الحرمان حرمان

ومن أدب الصيام الاقطار بالتمر على ما جاء في السنة من انه (ص) كان يفطر على تمرات فان لم يجد فرطبات فان لم يجد حسا حسوات من ماء وأنشدنا شيوخنا رحمهم الله غير مرة فى هذا المعنى بيتين للحافظ المقرى صاحب نفح الطيب ارتكب فيهما الجناس المحرف أيضا وهما :

فطور التمر سنه
رسول الله سنه
ينال الاجر عبد
يحلى منه سِنه

وظاهر ان لفظ سنة الاول بالضم والمراد به السنة النبوية والثانى بالفتح وهو فعل والثالث بالكسر والمراد به السن التى تكون فى الفم .

وبالمناسبة اذكر هنا أن الاخ الاستاذ الدكتور تقى الدين الهلالى نزيل المدينة المنورة الآن، اهدى الى سلة من التمر الممتاز المعروف بالمجهول ـ لغلظه وجفاوته ـ وذلك فى أحد الرمضانات، اذ كانت تلك عادته معى، أكرمه الله فى كل رمضان، فقلت هذه الابيات الثلاثة:

زينت مائدة الفطور بتحفة
(مجهولها) أضحى من المعلوم

أكرم بمهديها وما يهدى له

من الاعتصام بسنة المعصوم

حببتها للناس حتى أنهم

يأتونها بشهية المنهوم

وأرسلتها اليه فكانت أوقع فى نفسه من كل جواب شكر كنت ابعث به أليه.

ومن مستملح أدبيات رمضان ما روى أن ابن سيرين سئل وهو فى المسجد عن رواية الشعر فى رمضان وقول قوم أنها تنقض الوضوء فقام ليؤم الناس وهو ينشد:

أنبئت ان فتاة كنت أخطبها

عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

والقول فى أدبيات رمضان اوسع جدا وفى هذا القدر كفاية، ولم نتعرض للاعمال النثرية، وهى كثيرة فى كتب الوعظ كلطائف المعارف لابن رجب والروض الفائق للحريفشى وطهارة القلوب للديريني وغيرها، فليرجع اليها من شاء ففيها إنشاء رقيق مؤثر لا يقل عن أي إنشاء أدبى فى موضوع اخر.

نظرة في المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العـــرب

تأليف: المستشرق رينهارت دوزى ترجمة: الدكتور أكرم فاضل

ألف المستشرق الهولندى الشهير رينهارت دوزى هذا المعجم باقتراح مـن المعهد الملكى للبلاد المنخفضة سنة 1841 ونال جائزة المعهد عليه سنة 1843، ومما جاء فى تعليق عليه نُشر بالجريدة الآسيوية المعروفة هذه الفقرة «ترى من آين استقى هذه المعلومات الصحيحة الدقيقة من الازياء التى تخص أقطارا أجنبية ؟» .

والواقع ان العمل كبير وشاق، وان استنطاق المخطوطات والوثائق الرابدة فى المكتبات العمومية لتأليف معجم كهذا لا يقدر عليه الا باحث صبور بمثل همة المستشرق دوزى .

ومنذ تأليف هذا الكتاب وهو قابع فى نصه الاول، لم ينقل الى لغة الامة المعنية به، فضلا عن ان يقوم عربى بتأليف نظير له، كما لاحظ مترجمه الدكتور أكرم فاضل.

وقد أخرجت هذه الترجمة وزارة الاعلام العراقية بعناية مديرية الثقافة العامة بها فى طبعة جميلة سنة 1971 فى سلسلة المعاجم، وكان هذا المعجم هو الحلقة الاولى من هذه

السلسلة، وذلك فى نطاق النشاط الثقافـى وحركة النشـر الواسعة التى تقوم بها وزارة الاعلام فى العراق منذ سنوات والتى عوضت ما اعترى حركة النشر فى أقطار عربية أخرى من ضعف وفتور، ولما كان أكثر المواد التي تناولها المعجم مما يتعلق بالازياء والالبسة الخاصة بالاندلـس وأقطار المغرب العربي ومصر كما جاء في كلام المترجم الفاضل، وهو في الحقيقة كذلك، فأنى رأيت من باب التعاون على تجلية المـوضوع بما يجعلـه اكثـر وضـوحـا ولا سيما فـى أسماء المـلابس المغربية، أن أصحح بعض الاخطاء التـى وقع فيها المـؤلف، وهى ليست بالكثير، وذلك اما ضبطا أو تفسيرا أو تخـريجا وبعضها مما توقف فيه، فلم يجزم بـرأى فى شانه، وعـذره أنه بعيد عن الميدان وانما يستقى من الاوراق، وهى تضـن بالمعلومات الضرورية فى هذا الصدد، وكفاه ما سجله ووصفه من الاسماء والمسميات على وجه الصـواب وعلى صعيـد البلاد المغربية عامة، وهو الكثير الغالب الذى يتضاءل فـى جانبه ما أخطأ فيه، والله الموفق.

جاء فى ص 16 تعليقا: وصف الفقيه أبى الحسن شارح رسالة ابن أبى زيـد القيروانى بالشادلى وهو غيـر صحيح:

فان آبا الحسن هذا مصرى وآبو الحسن الشادلى مغربى وهو صوفى معروف تنسب اليه الطائفة الشادلية، والمصرى فقيه أزهرى من أهل القرن التاسع وشرحه معروف متداول به تدرس رسالة القيروانى فى الفقه المالكى.

فى ص 40 فسر المؤلف المئزر بالتبان وجعله فى مقابلة caleçon والمئزر فى الاستعمال العام الى اليوم وفى اللغة غير التبان ولا ينبغى ان يختلف فى ذلك، نعم مقابلة التبان بالكلسون صحيحة.

وجاء فى ص 41 تعليقا تفسير كلمة المشور التى تعنى فى الاصطلاح المغربى ساحة القصر الكبير، حيث يجتمع الاعوان وحاشية الملك، وهى مأخوذة من المشاورة ولكنها لا تعنى اطلاقا مجلس الشورى، وانما يراد بها المكان الذى يشاور الملك على الموجودين فيه من طالبى مقابلته، ولذلك يكون قائد المشور أى حاجب السلطان أو من يبلغه رغبة القادمين، لمقابلته، من آبرز الشخصيات الذين يضمهم المشور فينبغى آن يرد كل ما جاء فى ذلك التعليق الطويل الى هذا المعنى ولا يعدل به عنه، لانه ما يزال مدلوله هذا قائما وداله مستعملا فى المغرب فى جميع القصور الملكية .

فــى ص 47 فذلكة عن (التمــاك) غير محــررة، فقــد ذكر ان الكلمــة تركيــة وهذاصحيح وكتبهــا طومــاق وقــال ان العــرب اضافــوا اليها ال واعتبروهــا جزءا من الكلمــة ولذلك رسمها هكــذا الالطماق وجمعهــا على الالطماقات، وهى فى المغــرب لا تعــرف الا بالتماك على اعتبار ان ال الشمسية داخلة عليها واولها تاء واخرها كــاف فارسية، وفى القامــوس التــركــى تطلــق على الحذاء الخشــن وفى المغــرب تطلــق على الحــذاء الجلــدي الطويــل الساق الذي يلبس عند ركوب الخيل.

في ص 52 نقــل المؤلف عن الصحاح تفسيرا لكلمة البت وابياتا رجزيــة فيه، اوردهــا الجوهري بهــذا اللفظ: وقــال الراجز فى كساء من صوف:

من كان ذابت فهذا بتي　　　　مقيــظ مصيــف مشــت

اخذته من نعجات ست

فجعلها دوزي من نظم أحد الصوفية، وعلــق على ذلك بانه لا يخامــره شك فــى ان هــذه النعجــات الســت ترمــز الــى الدرجــات الست التى يتآلف منها التصــوف كما يــرى بعض العارفين الخ مما كتبه فى هــذا الصدد مما لا علاقة له بالموضوع

ويأباه تمام الاباء الشكل والمضمون للشاهد الذي اورده الجوهري والذى يدل بطبيعته على انه من نظم احد الرجاز العرب قبل أن يكون هناك صوف وصوفية، وهكذا يتعالم هؤلاء المستشرقون فيما لا علم لهم به

فى ص 53 عند الكلام على البجاد قال المؤلف «فليس في مقدوري ان اقول اكثر من ان الكلمة تعنى كساء مخططا من تلك الاكسية التى يرتديها الاعراب البداة، وان عبد الله ابا الرسول كان يرتدي بجادين فسمى بذي البجادين» والذى يعرف بذي البجادين هو عبد الله المزنى الصحابى دليل النبى صلى الله عليه وسلم لا والده عليه السلام، والعجيب انه نقل نص القاموس في ذلك ولكنه ابى الا ان يغيره من دليل الرسول الى ابى الرسول.

في ص 56 ذكر تعليقا ان الرداء يقابل manteau وفى هذا نظر، وقال فى تعليق اخر ان كلمة جبذة لا وجود لها فى القاموس وهذا غير صحيح فانه ذكر الجبذ والاجتباذ ثم قال والفعل كضرب، .

فى صفحة 66 وما بعدها كلام على البرنس يعتمد على نقول من مؤلفات أجنبية مختلفة ولذلك طال وتعددت فيه

الانظار ولو اعتمد على المشاهدة ولو لنموذج واحد مما يسمى البرنس لما وقع في ذلك الاختلاف الكثير .

واحسن ما عرف به البرنس من الاقوال المتضاربة التى نقلها هو أنه لباس يشبه المعطف له غطاء للرأس فى نهايته عقد ضخمة من الحرير. ثم أنه يكون من الصوف والجوخ ولونه أسود وابيض والاسود غالبا ما يلبس فى فصل الشتاء ومنه ما يسمى بالسلهام وذلك فى المغرب يكون من نسيج صوفى رفيع وهو لباس الطبقة العليا من الموظفين والعلماء وغيرهم، وذكر المؤلف انه يلبس فوق الحائك يعنى الكساء الذى يكون من نفس النسيج كما أنه يلبس فوق الجلباب المغربى المعروف، وهو اللباس الرسمى ويشترط أن يكون أبيض، ووقعت كلمة الحائك عنده هكذا: الحيك ... وصوابها ما ذكرناه كما أن كلمة السلهام جاءت عنده بصورة زلحم ترجمة خاطئة لـ zolham ويجمع السلهام على سلاهم وفيه قال الشاعر مجنسا.

وبدر لاح من تحت السلاهم
يقول لكل قلب قد سلاهم

الى آخره.

فى ص 75 تعليقا عن المستدرك على المعاجم لدوزى: أن البلغة هى النعل المتخذة من الحلفاء وهذا غلط فإنها تتخذ من الجلد ويكون وجهها أبيض أو أصفر من نوع ممتاز من الجلد.

فى 87 ذكر المؤلف البناقة وجمعها بنائق ..: وهى فى نطق العموم بنيقة لا بناقة ولذلك جمعت إلى بنائق.. وقال لا وجود لهذه الكلمة فى القاموس، وهو ان كان يعنى بالمعنى الذى تستعمل فيه عند أهل المغرب الان فصحيح والا فانها لفظة عربية ذكرها القاموس وغيره بمعنى ما يشبه الطوق يقال بنق القميص جعل له بنيقة وهى القطعة من الثوب تزاد فى نحره، واطلاقها فى المغرب على ما تلف به المرأة شعرها وخصوصا عند الخروج من الحمام وتكون من ثوب نفيس ومطرزة بالحرير ونحوه.

فى ص 99 بعد ان أورد تفسير الجوهرى للجديل بالوشاح وأيده بما قاله التبريزى فى شرح الحماسة، تدارك بأن رأى القاموس فى الجديلة لا يصح تفسيره بالحزام ولكن بنوع من السراويل وغفل عن أن الذى يطلق بمعنى الحزام هو الجديل وهو الذى فسره الجوهرى بالوشاح وأشار

اليه القاموس كذلك، وما قاله الفيروزابادى فى الجديلة هو أحد معانيها وهو على كل غير الجديل.

وفى الصفحة نفسها كلام على الجربية، وهى نوع من النسيج الصوفى ممتاز ولعله فى الاصل منسوب الى جزيرة جربة بتونس، ويطلق فى المغرب على القطعة من النسيج الصوفى المحبب الذى تتخذ منه الجلاليب ونحوها.

وفى هذه المادة أشار المترجم الفاضل فى تعليق له على كلام المؤلف وما وقع له من الوهم فى نقله عن كتاب الاحاطة، ولكنه لم يحقق المناط، فالكلمة التى وهم فيها المؤلف ليست يجيز ولا يجيز وانما هى يجبر بالباء الموحدة بعد الجيم وبذلك يصح المعنى الذى آراده السائل حين قال: وبم يجبر الاعلى؟

كذلك وقع فى هذه المادة ترجمة Gezoula بغزولا وهو خطأ والصواب جزولة وهى قبيلة مغربية ينسب اليها الكثير من أهل العلم بلفظ الجزولى

فى ص 102 يقول المؤلف عن نوع من الالبسة انها يجب أن لاتكون من اللون الاخضر لان محمدا كان يحب هذا اللون وان ذراريه يحملون العمامة الخضراء والناس يعتقدون

بايذائه اذا لبسوا الثياب الملونة باللون الاخضر، ولم يكونوا من أحفاده الخ، وهذا الكلام كله باطل وهو من تخرصات المستشرقين .

فى ص 115 تكلم المؤلف على الحزة بكسر الحاء وقال أنها لا وجود لها فى القاموس وهى بهذه الصيغة كذلك كلمة قاموسية لا غبار عليها فهى حجزة بضم الحاء والعامة تدغم الجيم فى الزاى بعد قلبه زايا فتصير حزة ومعناها مجرى التكة فى السراويل ويقال أيضا حجزة الازار بمعنى معقده.

فى ص 121 كلمة بعنوان الحيك أو الحائك وسبق لنا ان صوابها هو الحائك بصيغة اسم الفاعل كما ينطقها العموم هنا فى المغرب وقلنا فيما سبق أنها تعنى الكساء وذلك بالنسبة الى الرجال، وأما بالنسبة الى النساء فهو ما وصفه المؤلف، وقد يطلق أيضا على ما يلبسه الرجال اذا كان خشنا غير رفيع فيختلف بذلك عن الكساء ووقع فى هذه الكلمة ترجمة اسم القبيلة حاحة بحيحة وذلك ناشىء عن كتابتها كذلك بالحرف اللاتنى تبعا للنسبة اليها الجارية على الالسن فانها يقال فيها الحيحى، ولكن على لسان العوام، وأما فى كتابة أهل العلم فانها تكون على الاصل أى الحاحى كما نرى

فى اسم صاحب الرحلة العبدرية الشهير بالحاحى نسبة الى هذه القبيلة (1) ووقع فى هذه الكلمة خطآ اخر فى ترجمة السفير ابراهيم معنينو، اذ جاء لقبه هذا بصورة مانينو وآسرة معنينو أسرة ماجدة معروفة بمدينة سلا، وقد ذكر هذا السفير بمناسبة ما جاء فى وصف لباسه أثناء قيامه بمهمة فى امستردام عام 1659، وكذلك وقع خطأ فى اسم الخيوط التى تتدلى من طرفى الحائك فكتب (هدو) حسيب اللفظ الافرنجى Hudou وصوابه هدوب وكتب لفظ بزيم بالسين هكذا ابسيم، وكتب اسم المنصورية المنسرية بسين بعدها راء والصواب كما ذكرناه وهذه الكلمة فيها خلط كثير وقد صوبنا جله.

فى ص 142 فسر المؤلف كلمة حريثية التى جاءت وصفا لخميصه من لباسه (ص) بآنها نسبت لموضع يبدو أنه كان مشهورا بحياكة هذا النمط من اللباس؛ وقال فى تعليقه على الحديث الذى وردت فيه تلك الكلمة؛ وقد بحث عبثا عن كلمة حريثة التى هى اسم مكان فى عدة كتب مطبوعة ومخطوطة والصواب أنها نسبة الى رجل من قضاعة اسمه حريث كما عند شراح الحديث .

(1) وقد تكرر هذا الخطآ فى صفحة 143 وغيرها

فى ص 144 تعرض لكلمة مغنوس وكتبها مغـنس بـحسب النطق الاجنبى المحرف، وهى تعنى لبس البرنس أو السلهام بادخال الرأس فى فتحته التى كون عند غطاء الـرأس، يقال أغنس سلهامـك أى لا تضعه على كتفيك بـل ألبسه، وذلـك كثيرا ما يكون فى الرسميات ويزاد عند مقابلة الملك التجنيح وهو أن يرد جنـاح السلهام الايسر الى وراء وهذه أمور مـا تزال تتبع الى الان فى المغرب:

وفى الصفحة نفسها كلام على الـدرع وقـد فـسـرهـا بالقميص، وقال : كثيرا ما استعمل الشعـراء هذه الكلـمة اشارة الى المرأة نفسها واستشهد ببيت للـمعتمد بـن عباد وهو.

ان نشرت تلك الدروع حنادسا

ملأت لنا هذي الكـؤوس ضياء

ثم عقب على ذلك بقوله: «لادراك معنى هذا البيت ينبغى أن نتذكر ان الشعراء يشبهون الغيد بالليـل بسبب شعـرهن الاسود، ويشبهون الخمر بالنهار أو بالشمس لبريقها ولالئها وعلى هذا الاساس أترجم هذا البيت «اذا كانت هذه الفتيات (حـرفيـا هـذه القمـص) قـد نشـرت الظلمـة فمقابـل

ذلك هذه الكووس قد ملأته لنا بالضياء» وهذا تعسف من المؤلف كما قال المترجم الفاضل فى تعليق على هذا الكلام، والبيت الذى استشهد به هو من قطعة تنطق بأن المراد بالدروع هنا دروع القتال لا القمصان فالمراد ان الدروع الحديدية التى تتخذ للقتال ان كان لونها سوادا فأن ساقياتنا الحسناوات واليهن الاشارة بهذه، تملأ كؤوسنا خمرا تكاد تشتعل ضياء ويوضح ذلك البيت الاول من القطعة وهو:

ولقد شربت الراح يسطع نورها

والليل قد مد الظلام رداء

ثم البيت الذى يشبه نفسه فيه بالبدر بين الكواكب على ما جاء فى أبيات القطعة المتوسطة بين البيت الاول وهذا البيت وهو قبل بيت الشاهد مباشرة:

وحكيته في الارض بين مواكب

وكواعب جمعت سنا وسناء

فهو يتخيل نفسه كالبدر فى سواد المواكب والكواعب كالكواكب التى تحيط بالبدر الخ ولا قمص مرادا بها النساء ولا تخبط فيما هو أوضح من النهار .

وزاد فى هوسه هذا فقال والشاعر نفسه يعنى المعتمد يقول أيضا ..

قد رمت يوم نزالهم ألا تحصنني الدروع

ويفسر البيت بقوله «لقد رغبت بحماسة متقدة منازلة الاعداء ولكن النساء حرفيا (القمص) منعنني من ذلك ولا من هذا التمحل الفاضح وهو لو رجع الى مصدره الذى نقل منه البيت بل الى معلوماته عن قضية المعتمد الذى طالما قرع االمرابطين بسببه لوجد أنه لما برز لقتال مهاجميه برز لهم حاسرا بدون درع وفى ذلك يقول القطعة التى منها هذا البيت .

فى ص 145 ورد لفظ الدراعه بصورة المصدر ونظن أنه خطأ فى القراءة وعليه فهو لفظ الدراعة بتشديد الراء مع فتح الدال الوارد فى الصفحة التالية؛ وقد اضطرب، فيها كلام المؤلف فجعلها من الصوف تارة ومن الكتان تارة أخرى وقال انها قميص فضفاض مفرط فى السعة دقيق للغاية كما يفهم كلامه العكس وانها مما يلبس فوق غيره من الثياب وفى نص نقله عن ابن خلكان يتعلق بالوزير المغربى أشعر كلامه بأنها لباس متواضع بعيد عن الفخفخة والتظاهر، وما

نعرفه عن هذه اللبسة هى أنها جبة واسعة بدون اكمام وتكون من قماش جيد ومطرز أحيانا عند العنق وعند فتحة اليدين بالحرير من لونها أو من لون ينسجم مع لونها وهى نفسها تكون من ألوان مختلفة وتلبس فوق الثياب الداخلية كالجلباب وأكثر ما تستعمل فى تونس، وتمسك الوزير المغربى بها وعدم قبوله لما يخلع على الولاة هو فى نظرنا من اعتزازه بلباسه القومى وتعوده عليه ،

فى صفحة 154 كلام على ما سماه الرخاية وجمعها الرخايات وقع فيه غلط من جهة النطق لم يبق له معنى وصوابه الريحية بصورة النسبة الى الريح وجمعها الريحيات فهى بالحاء المهملة لا بالخاء وهى نوع من الاحذية النسائية خفيفة جدا شبيهة بالخف ولخفتها سميت بالريحية، ولم يبق لها استعمال الان،

فى ص 155 اشار المترجم الفاضل فى تعليق له الى خطأ المؤلف فى قراءة شطر بيت الشاعر ابن حمديس جاء فيه (غلائلا ورسية) فظن أن الواو عاطفة وهى من بنية الكلمة (ورسية) نسبة الى الورس وهو نبات أصفر يصبغ به ولم يبين المعلق ذلك .

فى ص 158 تكلم على الريطة وفسرها بما عند أهل

اللغة من أنها الملاءة؛ ولكنه بحث فى هذا التفسير بما جاء فى مقامات الحريرى وهو قوله: «فاذا شيخ عارى الجلدة، وقد اعتم بريطة واستتر بفوطة» قائلا ان الريطة لو كانت بمعنى الملاءة لما كان الشيخ عارى الجلدة ولما احتاج لستر عورته بفوطة، وفاته ان المراد هو التشويه، فالفوطة التى كان حقها ان توضع على الرأس وضعت على العورة والريطة التى تستر الجسم كله جعلت عمامة كبيرة تستلفت الانظار.

ص 160 تكلم على السلهام مستقلا عن البرنس وترجمه بالزلحم، ومع أنه نقل عن بعضهم ما يفيد أنه بالسين والهاء وانه يكتب سلهام فأنه لم يقلع عن تسميته زلحم.

فى ص 162 تكلم عن الزنار وقال أنه من لباس المسيحيين وهو كذلك وجاء فى كلامه اسم مردنيش فكتب بعد هلالين (كذا) وهو ثائر أندلسى مشهور، ومن الغريب أن يخفى على دوزى، وفى تعليق طويل على هذه الكلمة تطرق لاطلاق الخدمة بمعنى الجندية والخديم بمعنى الجندى وقد تمحل فى ذلك كثيرا ولم يصل الى نتيجة ايجابية، وهو متأثر فى هذا المعنى الذى أراد الصاقه بلفظ الخدمة بالاستعمال الاجنبى للكلمة

ص 165 أورد كلمة السبنية وقال انها في المغرب تدل على حزام أو منطقة، وزاد فى التعليق أنها تدل كذلك على المنشفة الخ... وهى فى المغرب انما يراد بها المنديل الذى يقابل Mouchoir فى الفرنسية وقد تطلق على المنديل الحريرى الذى تشد به السيدات شعور هن وانظر بحثنا (عاميتنا والمعجمية) فى مجلة تمودة العدد الاول من السنة الثالثة 1954.

ص 175 ذكر كلمة السليفة على انها نوع من الزينة للرأس عند نساء المغرب، وقال أن بعضهم يكتبها سفيفة وربما كان ذلك خطأ، ونظن ان هذا الخطأ هو الصواب فأننا لا نعرف السليفة باللام واما بالفاء فهى بمثابة الشريط الحريرى ونحوه يزين به طرف الثوب .

ص 187 تكلم على الشربيل وهو حذاء نسوى مطرز معروف الى الان وقال انه يسمى xerecuill ولم يذكر تعريبه ولا ندرى ما قصد به الا ان يكون تحرف عليه من السريكسى وهو نوع من الاحذية متقن الصنع ولعله منسوب الى السركس.

ص 192 تكلم على التشمير وجمعه التشامير وقال انه يعنى

السترة او الجاكتة والصواب انه القميص الفضفاض السابغ ثم انه فى نطق العامة بصورة ما زعمه جمعا واما التشمير بسكون الشين فانه بمعنى المصدر وهو أن يشمر المرء عن ذراعيه أو ساقيه .

ص 194 تكلم على الشملة وقال أنها بمعنى البردة وذلك صحيح فى الجملة ولو قال أنها بمعنى الملحفة لقارب لانها الثوب الذى يشتمل به ويلتحف، وبعد ذلك تطرق الى احتمال ان تكون بمعنى القطيفة وما يجعل فوق السرير، ونسب ذلك لقبيلة حاحة المغربية وهو يسميها حيحة كما ألمعنا لذلك من قبل ثم نقل عن مستشرق اسبانى ما ظن أنه يؤيد به كلامه من أن ملك المغرب يجلس على قطيفة من الصوف ولم يقصد المستشرق المشار اليه الا سجادا أو ما نسميه نحن زربية اذ عبر بـ: alfombra وهى السجاد الصوفى وأخطأ فى كتابة هذه الكلمة فجاءت عنده هكذا. alhambra

ص 208 تكلم على المضمة وكتبها المضامة وهذا خطأ فانها مفعلة من الضم أى اسم آلة واحسن ما تفسر به هو قوله حزام يجعل الثوب الواسع يلاصق الجسم، وهى لا تزال تستعمل الى اليوم فى المغرب للرجال والنساء مع الزى

التقليدى وتكون من الجلد والقماش المطرز ومن الذهب والفضة للنساء وكل ما طرق فيها من الاحتمالات ومن ترجيح كتابتها بالالف بعد الضاد غير صحيح .

فى ص 230 سمى ابن جبير الرحالة المشهور محمودا، وهو محمد.

فى ص 248 ترجمت كلمة العصابة بفتح العين والصاد المشددة بعزابة تبعا للكتابة المغلوطة Azzaba بالحروف اللاتنية وهى فى النطق المغربى الى الان بالصاد كما ذكرنا.

ص 280 أشار في تعليق الى أن كلمة قبع تعنى فى المغرب غطاء الرأس من البرنس وهذا ليس صحيحا فان الذى يطلق على غطاء الرأس من البرنس أو الجلباب هو لفظ قب بتشديد الباء ولا تعرف كلمة قبع بالعين فى المغرب اطلاقا بهذا المعنى.

ص 282 وهو يتكلم على القبقاب قال ولم أقع على هذا الحذاء لا فى المغرب ولا فى الاقطار الشرقية وهو قصور فان القبقاب فى المغرب معروف وكان يستعمل قبل بكثرة ولا سيما فى أيام المطر ويستعمل الى الان فى الحمامات وأثناء الوضوء وللنساء قباقب منقوشة ومزينة بأنواع الاصباغ

ولكنها الان قلت صنعتها وكادت تختفى من السوق.

ص 293 تكلم على القشاب ويقال انقشابة آيضا بتاء وهو كما قال قميص من الصوف بلا كمين وما ذكره بعد من ألفاظ انما هى تحريفات للكلمة فى المنطق الاوربى، وقوله أنه يلبسن بدلا من القفطان ينبغى ان نعرف أنه من ملبوس البدو هم لا يلبسون القفطان فالصواب أن يقال ويقوم عند البدو مقام القفطان عند الحضر.

ص 314 ـ 315 تكلم على الكنبوش وأنه من ملبوس النساء فى المغرب كالخمار.. وهذا صحيح وعلق المترجم الفاضل على ما كتبه المؤلف يتساءل عن نتيجة البحث على الكنبوش هل هو الخمار فحسب أم هو بخنق المولود، ونقول إنه الخمار لا غير وانه خاص بالنساء الى حد إن بعض أصحاب المنظومات الوعظية يقول:

والحب للمنقوش والكنبوش يبدى عيوب المدعى المغشوش

فعبر بالكنبوش عن المرأة وأراد بالمنقوش الدراهم والدنانير وجعل معيار صلاح المرء وعدمه هو معاملته مع النساء والمال .

ص 320 علق المؤلف على كلمة مصوغ وما قاربها بأنها

تعنى زراكش الذهب فى الثياب التى تستعملها النساء وهذا غير صحيح فأن المصوغ المراد بـه الحلي مـن الـذهب والفضة والصياغة هى حرفة صانع الحلي، والصياغين والصاغة تطلق على سوق الحلي وان كانت جمعا للصياغ والصائغ.

وفى تمام الكلام على المادة التى ذكـر فيها هذا التعلـيق وهى اللباس، تعرض المؤلف فى الصفحة التالية للكـلام على التبان الطويل وقال أن الاعراب لا تلبســه لانه محـرم بأمر الرسول (ص) ولعله يريد السراويل، وقـد اختلـف العلماء هل لبس الرسول السراويل أم لا، والراجح انه اشتراه كما ورد فى بعض الاحاديث ولم يلبسه، واما تحريمه فلا يعرف ولا أساس له من الصحة.

ص 324 ذكرت كلـمة ايذاب اسما لمدينة، ونعتقـد أنها عيذاب، اذ لم تذكر الكلمة الافرنجية المترجمة ولكـن السياق يعطى ما ذكرناه.

ص 338 ذكر كلمة المنصورية وكتبها المنسرية باعتبـار اللفظ الافرنجي وهى منسوبة للملـك المنصور الذهبى الـذى يقال أنه أول من لبسها وبذلك يعرف أنها من لباس النساء والرجال على السواء الا أن القسوية تكون من الحرير

والموسلين (الموصلى) وغيرهما من النسيج الرفيع والمذهب، والرجالية تكون من القماش الابيض الرفيع الساذج لا غير.

نقف هنا مكتفين بما ذكرناه من ملاحظات متجاوزين عن بعض الالفاظ والعبارات التى بقى فى نفسنا منها شيء واكنا لم نجزم فيها برأى لكونها غير مستعملة عندنا أو لتمحل المؤلف فى تخريجها وان أصاب فى معناها أو لمخالفتها للاسلوب العربى الصحيح، فأن تتبع ذلك يطول، والفائدة منه قليلة وعلى كل فالمجهود الكبير الذى بذله المؤلف فى جمع هذه المعلومات الغزيرة عن الملابس العربية هو مما لا كفاء له ويضؤلَ بجانبه كل خطأ أو وهم وقع فيه، ومَنْ الذى يسلم من الخطأ والوهم؟

وتقديرنا لعمل المؤلف لا ينسينا ان نقدر عمل المترجم فأنه نقل هذا المعجم النفيس الى من هم أولى به وأحق أن يستفيدوا منه أعنى العرب الذين تكون هذه الملابس جانبا من تراثهم الحضارى وتاريخهم الاجتماعى وقاموسهم اللغوى،

ومثل هذه الكتب التى يجب أن تترجم وتعطى الاولوية فى النقل من اللغات الاجنبية الى لغتنا الضادية لما لها من أهمية وارتباط بوجودنا وكياننا فى الماضى والحاضر.

عنـاية السلطان مـولاى سليمان العلوي بعلـــم التفسيـــر

السلطان العالم أبو الربيع سليمان بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل العلوى الحسنى

الى جانب اضطلاعه بشؤون الملك والامامة العـظمـى كان شديد الاهتمام بالعلم والاكباب عليه والتأليف فيه ولاسيما علم الحديث وعلم القرآن واعتـناؤه بالعلماء وتقـريبه نهم والمجالس التى كان يعقدها معهم للمـذاكرة وقراءة الكتـب العلمية المختلفة هو مما تعالم من سيرته واشتهر فى برنامـج عمله اليومى واخص ما كان يعنى به علوم البلاغة والحديث والقراءات كما يعلم ذلك من ترجمته وكم حض على تحـرير مسائلها والتأليف فيها ومما هو معروف ان عدة كتب فى هذه العلوم وضعت بأمره وتحقيقا لرغبته وأنه أجاز عليها بالجوائز السنية، والمكافآت العظيمة .

وهذا فضلا عن كونه هو نفسه قـد عنى بالكـتابة فى موضاعات متنوعة من مسائـل العلوم المذكورة وجود فيـها ما شاء وتآليفه هذه توجد فى الخزائن العامة والخاصة بكثرة،

ويهمنا فى هذا المقام عنايته بعلم التفسير خاصة، وبعض كتاباته فيه، لاسيما وهو مما لا ينبه عليه التاريخ ولا يشير اليه كتاب ترجمته الا تضمينا حين يؤكدون اشتغاله بعلوم القرآن جملة ويعينون منها علم القراءات بالخصوص وهو الذى الفت فيه باسمه كتب متعددة من رجال مختصين وبعضها مطبوع متداول فأحببنا أن نلم فى هذه العجالة بشذرات من كتاباته وأبحاثه التفسيرية على وجه التعيين لندل على شمول عنايته بعلوم القرآن للتفسير الذى هو لبها وجوهرها .

ونبرهن ضمن ذلك على غوصه وتعمقه فى الفهم وبعد نظره وتحققه بفنون البلاغة وأسرار العربية؛ الذى جعله يدرك ما خفى عن بعض المفسرين ويراجعهم فيما لهم من أنظار ولكن فى دائرة المسلمات والعقائد والاصول الفقهية وعدم الزيغ عن الصراط المستقيم .

وأول ذلك بحث له مع العلامة البيضاوى في تفسيره للآية الكريمة (انا عرضنا الامانه على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الانسان، أنه كان، ظلوما جهولا) فأن هذا المفسر بعد ما فرغ من عرض ما لغيره

فى الاية من آراء وهى أن المراد بالامانة الطاعة وبعرضها على من ذكر الفرض والتقدير وليس العرض بالفعل أو أن المراد بها الطاعة الطبيعية والاختيارية وبالعرض الاستدعاء طلبا للفعل من المختار وارادة لصدوره من غيره، أو أن العرض كان حقيقة بأن خلق الله الادراك فى هذه الجمادات، والامانة على كل حال هى الطاعة... بعد ذلك أتى برأى له قاصر عبر عنه بقوله: «ولعل المراد بالامانة العقل أو التكليف وبعرضها عليهن اعتبارها بالاضافة الى استعدادهن، وبابائهن الاباء الطبيعى الذى هو عدم القابلية والاستعداد وبحمل الانسان قابليته واستعداده لها» الخ ...

فكتب عليه مولاى سليمان موجها الخطاب الى أستاذه الشيخ الطيب بن كيران ما نصه:

الحمد لله، أردت أن أظهر لشيخنا عوض والدنا، جودة نظرنا ليكون ذلك عنده أفضل من حمر النعم، كما قالها عمر بن الخطاب رضى الله عنه لولده لما استحيى فمنعنى من ذلك الحياء

وهو اعتراض على البيضاوى فى الوجه الذى ابداه، فانه ينبو عنه الفهم السالم، ومن كان له حسن نظر فيما يعطيه الكلام ويترتب عليه النظام، فأقول: انما يقال لعاقل مثل زيد

أردته لقبول المعانى والمزايا فلم أجده يصلح لها ولا يقال أردت هذه الخشبة لقبول الرياسة والخيرات فلم أجدها تصلح لذلك ولم يتخرج هذا الكلام الا فى معرض الذم لمن لم يكن أهلا لقبول ما رشح له وما أريد معه .

«والتفات آخر: لا يصدر هذا الكلام الا ممن يزيد علمه باختبار الاشياء، أما الفاطر العالم قيوم السماء فلا يناسب نسبة هذا اليه الا فى معرض الذم ممن أراد أن يظهر عيوبه لخلقه، اما فى مثل الجمادات فلا .

«نحب من شيخنا ان يعطى هذا الكلام حقه من نظره السديد وان لا يقرنى على خطأ، سيما وفيه تجاسر على ما لست له بأهل والله يعصمنا من الزلل آمين» .

ثم زاد بأثره يليه، توضيحا لمراده قوله: «لانك لا تقول عرضت فضيلة على الجبل فلم أجد فيه قابلية، وعرضتها على زيد فوجدته ظلوما جهولا، الا اذا أردت ذم الصنفين على أن جلالة الاخطار فى الاخطار وليس الذم بمتوجه على من حمل ما يبلغه، انما الظلم والجهل منصبان على الخاسر، وجنس الادمى والجان خير من الجماد، أعنى المومن، والجماد قابل لما حمله

من أمانة وهى السجود والتسبيح والاذعان وما يؤمر بـه من خسف وزلزال ومن لم يخن من الجن والانس ممدوح له فضيلة تحمل الامانة وعدم الخيانة فى أمانته كما فسره به الكشاف ومن هو ابتكر هذا الوجه وتعب عليه، لله دره، أم سبق اليه أفدنـا» الخ ...

وقد أجابـه الشيخ الطيب بـما نصه :

«الحمد لله حق حمده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وجنده، كأن مراد مولانا الامام المؤيد ابقى الله سعادته ومجادته الى الابد، مناقشة الـزمخشرى فى عدولـه فى الاية عن الحقيقة الى المجاز مع أن حملها على ظاهرها ممكـن وهو المهيع المطروق الوارد عن السلف الذين هم اعلم منا بتأويل كتاب الله ومحامله الحقيقية والمجازية وأدرى بأساليب كلام العرب وما يتبادر من تراكيبهم ومالا»

وبعد ان تعرض الشيخ الطيب لرأى الزمخشرى فى الاية الكريمة وهو وجهان كلاهما محمولان على المجاز، وتعقبـه بأن حملها عـلى الحقيقة بخلق الادراك والفهم فـى الجمادات المذكورة غير مستبعد على قدرة الله عز وجل وأنه هو الحمـل المنقول عن السلف استطرد لذكر الرأى الذى أدلى به البيضاوى

وهو محل بحث السلطان ولكنه انما نقله بالحرف ولم يعقب عليه بشيء، كأنه لم ير فيه ما رأى السلطان تقييدا آخر نظن أنه له وأنه كتب بعد مراجعة ثانية من السلطان للشيخ الطيب، وتحليته بأوصاف رأى أنها فوق قدره كما فى طالعة هذا التقييد، يفصح عن موافقته للسلطان فى بحثه وتأييده فى مناقبته، وهو يقول فيه : «ولنرجع الى المقصود فنقول ما اعترض به سيدنا على البيضاوى وأرد عليه أى ورود عند تحكيم العبارة ومنعها من الانحراف والشرود والجرى على مقتضى اللفظ افراد وتركيبا والاخذ بمعناه سياقا وترتيبا، وبأدنى من ذلك يناقش العلماء بعضهم بعضا، ويؤاخذ النقاد البصراء من يتساهل في التعبير ولا يحترز عما يوهم ما لا يرضى» الخ.

والجدير بالذكر ان العلامة مولاى عبد الهادى العلوى كتب على بحث السلطان غير موافق ما لفظه: «الحمد لله تأملت ما كتبه مولانا الامير سليمان ومجاراة شيخه سيدى الطيب بن كيران فاتضح لى عدم صحة ردهما على الزمخشرى والبيضاوى» ولم يبين رأيه وانما أحال على تفسير العلامة أبى السعود .

ومن هنا قلت ان التقييد الثانى ربما كان للشيخ الطيب أيضا لانه هو الذى فيه موافقة السلطان ومجاراته، فضلا عن كون المصدر الذى انقل عنه، هو مجموع من محتويات خزانتنا الكنونية أكثر من مؤلفات الشيخ الطيب .

وآية أخرى للسلطان مولاى سليمان فيها بحث ادلى به لشيوخه وعلماء مجلسه فوافقوه عليه، وهى قوله تعالى «ولو نشاء اجعلنا منكم ملائكة فى الارض يخلفون» ففى تقييد أظنه للشيخ الطيب أيضا أن المفسرين والنحويين ذكروا فى معنى (من) هنا وجهين أحدهما البدل أى ولو نشاء لجعلنا بدلكم ملائكة كقوله: (ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) والثانى الابتداء أى ولو نشاء لجعلنا ملائكة ناشئين منكم ولم نجعلهم خلقا مخترعا بلا أبوين والخطاب على الوجهين للبشر عموما.

ثم قال التقييد: «وظهر لسيدنا السلطان المؤيد، والعالم النحرير الا وحد مولانا سليمان بن مولانا محمد، وجه ثالث كتبه بخطة الشريف وتلقيناه منه بالمشافهة وهو أن تكون (من) للبدل ولكن الخطاب خاص بالرسل كأنه قيل. ولو نشاء لجعلنا بدلكم ايها الرسل ملائكة يخلفونكم فى دعوة البشر الى الله وتلقينهم عنه شرائعه واحكامه كما اقترحه الكفار غير مرة، فقال قوم نوح «ولو شاء الله لا نزل

ملائكة» وقال كفار قريش «لولا نزل اليه ملك فيكون معه نذيرا» الخ ... وقد وجه التقييد هذا الرأى وأيده، واورد ما يأتى عليه من الاعتراض وأبطله ورده وجعله من الفهم الذى أوتيه رجل معلم كما ورد فى الحديث، ومما ينشد فيه: كم ترك الاول للاخر. لان المفسرين لم يهتدوا الى تطريق هذا البحث فى الاية، واقتصروا فقط على الوجهين السابقين ثم ختم الكلام فيه بقول ابن مالك المشهور فى خطبة تسهيله «واذا كانت العلوم منحا ألهية ومواهب اختصاصية، فغير مستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ما عسر فهمه على كثير من المتقدمين».

وكتابة ثالثة له قدس الله روحه على آية (وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه، ما لهم به من علم، الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا، بل رفعة الله اليه) الاية - وهى آية جديرة بالتأمل وتثير تساؤلات عديدة وعليها مبنى عقيدة النصارى فلننظر كيف حرر السلطان مولاى سليمان مبحث تفسيرها بسياق ما كتبه عليها ونصه مستخرجا من شرح شيخه عليه .

الله اعلم بمراده تعالى ربنا - (وان الذين اختلفوا فيه)

اى فى عيسى من بنى اسرائيل اليهود الذين كذبوه، والنصارى الذين صدقوه وفرقهم فى زمان محمد صلى الله عليه وسلم (لفى شك منه) اى لفى شك من امر عيسى ولم يحقق أحد من المختلفين فيه ما هو الحق المطابق للواقع فكيف يحاجونك بما لا يعلمون صحته، الا فرقة واحدة وهى المعتقدة للحق الصادقة من فرق النصارى ولهذا لم يختلف قولها مع قول محمد والقرآن فلم تقصد بالذكر وليست فى شك .

والحق ما أنزل اليك وهو ما تعتقده الفرقة الناجية التى بقيت على الحق ومن تبعها حتى أتى محمد بالحق والنور: انهم (ما قتلوه يقينا) أى من ظن ذلك (بل رفعه الله اليه) وذلك ما أشير اليه فى الاية من اختلافهم وشكهم آى بيانه ان فرق النصارى اختلفت في نفسها ومع اليهود فقالت هو كاذب وقد قتلناه وصلبناه ولكن شككهم فى ذلك أنهم لم يجدوا صاحبهم المنافق الذى ألقى شبهه عليه أو المسلم الذى فقدوه من العدد على القول بأن شبهه القى على مسلم من أصحابه لانهم علموا بالعدد الذى فى البيت الذى كان فيه عيسى، فلذلك قالوا أن قتلنا المسيح عيسى فأين صاحبنا وان قتلنا صاحبنا فأين عيسى، أو قالوا البدن بدن صاحبنا والوجه

وجه عيسى فلذلك كانوا فى شك من فعلهم .

وأما النصارى المارقون عن الحق فقالت فرقة هو الله والاله لا يقتل وقالت فرقة هو اله ثالث، وهى التى تقول بالتثليث، وقد وجدهم قسطنطين الملك على فرق تزيد عن الثلاثين وكلها ضلال الا القليل المعتقدين ما فى القرآن الذين بقوا على الحق حتى آتى محمد صلى الله عليه وسلم ففروا منه بدينهم، وقد جمعهم قسطنطين المذكور على ما هم عليه الان، وسماها الامانة الكبرى وهى فى الحقيقة الخيانة الكبرى .

هذا تفسير رحمه الله ورضى عنه للآية، ويظهر عند تأمله ما فيه من تحقيق للنظر وتنزيل على الواقع واستدلال بتاريخ النصرانية نفسها، مما يجعلنا نكبر همة هذا السلطان الذى لم تشغله مهام الملك وتدبير شؤون الرعية عن المشاركة مع أعيان علماء عصره فى خدمة القرآن وعلومه بهذا الجهد الكبير والنفس العالى ،

وقد أتبع شيخه هذا التقييد بشرح واف أبرز فيه نكتة ومضامينه واستشهد عليها بالنصوص والنقول المؤيدة من قواعد الاصول والمنطق والبلاغة وأقوال أئمة التفسير

والمحدثين فأتى فى ذلك بالعجب العجاب .

ومرة أخرى نظن ان شيخه هذا هو العلامة الطيب بن كيران لان نفسه ظاهر فى كتابه، وان لم يسم نفسه ولم يسمه كاتب الشرح وهو أحد العلماء الاثبات.

ومن هنا نظن ايضا أن التفسير الذى كتبه الشيخ الطيب ابن كيران والذى يبدأ من سورة النساء ويقف فى سورة غافر، لا يبعد بل يترجح أن يكون بأمر من مولاى سليمان ونتيجة لهذه المداولات التى كانت تجرى بينهما فى معانى الايات الكريمة ومراميها والتعليق على ما نحاه المفسرون السابقون فى ذلك.

رحم الله السلطان العالم مولاى سليمان الذى كان مفخرة للسلاطين وعزا للعلماء .

نقطة ضعف في تاريخ ابن حيان

يحظى مؤرخ الاندلس ابو مروان بن حيان القرطبى (377 – 469) بتقدير كبير من المؤرخين وعموم الكتاب ببلده، يعتمدونه فى الاخبار، وينقلون عنه تراجم الرجال، ويعجبون بأدبة واسلوبه البليغ، حتى قال فيه تلميذه ابو على الغسانى وهو من هو علما ودينا: «كان عالى السن، قوى المعرفة، مستبحرا فى الاداب، وبارعا فيها، صاحب لواء التاريخ بالاندلس أفصح الناس فيه، واحسنهم نظما (أى تأليفا) له» ونوه به ابن حزم فى رسالته فى فضل الاندلس وهو بعد حى فى طور الاكتهال كما قال، وكذلك نوه به الشقندى فى رسالته المعروفة، ولا يستغرب من أهل الاندلس ان يحيطوا نابغة من نبغائهم بهذه الهالة من التقدير، وهم الذين عرفوا بفرط الاعتزاز ببلدهم، والاعتداد برجالاتهم الى حد التعصب على انه فى الواقع شخصية فذة لا جدال فى قيمة ما قدمه الينا من مادة تاريخية دسمة، تتوزع ماضى الاندلس من لدن الفتح العربى الى زمنه، وحاضرها المعاصر له، فى كتابه المقتبس والمتين، بمجلداتهما العديدة التى لم يصلنا منها الا أقل

القليل.

وبالاطلاع على ما أمكن من هذه المادة، نجد انه حقا أديب متمكن واسع المعرفة جزل العبارة قوى الاسلوب، بحيث يعد من بلغاء كتاب عصره الا ما خالفهم فيه، وهو أنه سلم من آفة السجع الذى كان قد أصبح حلية الكتاب وعلامة البراعة، وهذه المكانة الادبية هى التى جعلته متميزا بين المؤرخين بصفاء ديباجته وعلو لغته، لان طبع الاديب فيه يغلب على طبع المؤرخ، حتى أنه يقع فى كلامه بعض الالفاظ الغريبة أحيانا، ومع ذلك فهو فى التاريخ نسيج وحده، فى عصره وبلده، استوعب تواريخ من سبقه لعهد الولاة وخلافة قرطبة الى حين سقوطها، وسجل ما شهده من أحداث التاريخ الكبرى كأخبار الدولة العامرية والفتنة البربرية وقيام ملوك الطوائف، وغير ذلك بدقة متناهية واستقصاء كامل، مما جعله المرجع الوحيد فى هذه الفترة الخطيرة من تاريخ الاندلس الذى لا غنى عنه لكاتب أو باحث.

وبالجملة فهو من كبار المؤرخين الذين ظهروا فى مغرب الوطن العربى، وان لم يكتب تاريخا عاما يشمل البلاد العربية والاسلامية كما فعل ابن جرير الطبرى وابن الاثير

وابن كثير وابو الفدا وابن خلدون وغيرهم من أئمة التاريخ العلم، لكنه وقد قصر تاريخه على بلاده الاندلس، سد فراغا اولاه لم يسد، وعمل في دائرته الخاصة عملا متقنا فلحق بركب المؤرخين المجيدين والمؤلفين المتميزين في هذا الشأن ويبالغ بعض الكتاب في شأنه فيجعلونه اعظم مؤرخ ظهر في الاندلس، وربما في المغرب العربى كله، متأثرين بمقالات الاندلسيين في تزكية بعضهم لبعض، ونحن لم نره تفرد بشيء ليس عند غيره من أعلام التاريخ المذكورين واذا كان كتاباه المشهوران : المقتبس والمتين لم يصلا الينا كاملين وانما وصلنا منهما أجزاء صغيرة. فان زبدتهما قد استخلصها من أتى بعده من المؤرخين الذين وقفوا عليهما وما هى ببدع في مدونات التاريخ.

نعم تفرد ابن حيان عن جمهرة المؤرخين العرب بشي، لا يحمد عليه، ولا يعد من المميزات الحسنة، بل هو نقطة ضعف في تاريخه، تجعل القارىء لا يطمئن الى كل ما يرويه او يخبر به. ونعني بذلك الذم والطعن والتشنيع على الناس، مما ضج منه غير واحد من العلماء والمؤرخين الذين نقلوا عنه

واستفادوا منه، فكانوا يستخلصون المعلومات والافادات التى تهمهم فى الموضوع ويعرضون عن لمزاته وغمزاته وتنديده من الاعراض والاشخاص الذين يترجم لهم. وابن بشكوال فى كتابه الصلة اول من يفعل ذلك ولما ترجم لصاحبنا ابن حيان اثنى عليه الثناء الجميل، واشار الى ما ينتقد عليه من ذلك فى صورة ابراء على عادة العلماء، اذ حكى عن الفقيه الصالح أبى عبد الله بن عون انه رآه فى النوم بعد وفاته، فسأله ما فعل الله به فقال غفر لى قال فقلت له فالتاريخ الذى صنعت ندمت عليه؟ فقال: اما والله لقد ندمت عليه الا أن الله عز وجل بلطفه عفى عنى وغفر لى. فهذه الحكاية صحت أم لا، فى سياقها الجميل اعتذار لطيف كان هو الاعلان من ابن بشكوال رحمه الله عن عدم موافقته على صنيع ابن حيان فى نث عيوب الناس ولو كانت واقعا ثابتا، فانه لم يقدح فى صدقه ولكنه استنكر التشهير بعباد الله فيما آمرنا بستره وعدم البحث عنه، لاسيما مع عدم المقتضى لذلك واستكمال فائدة الخبر بالسكوت عنه، فأنه حينئذ يصبح هجاء، وهل يكون المؤرخ هجاء (بكسر الهاء فى الاول وفتحها مع تشديد الميم فى الثانى) .

وانى أخشى ان يكون طبع الاديب بالمفهوم القديم قد غلب على ابن حيان فساقه الى قرن المديح بالهجاء اذ كان الامران لا ينفكان فى نظر أهل الادب، فموضوع المدح يتبعه موضوع الهجاء، وخاصة عند الشعراء، وابن حيان وان لم يكن شاعرا فهو قد تأثر بأساليب الشعراء واغراضهم فيما يظهر، واعتبر الهجاء فنا من فنون القول، وغرضا من أغراض الكتابة،

وقد كان ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة أصرح من ابن بشكوال فى ادانة ابن حيان، حين سمى فعله هذا بالهجاء ولم يجمجم فى ذلك فقال وهو ينتقى مقاطع من نثره: «وهذه فصو مقتضبة من طويل كلامه فى تاريخه وكنيت عن أكثر من به صرح، وأعجمت باسم من به أعرب وأفصح رغبة بكتابى عن الشين، وبنفسى عن أن أكون احد الهاجيين» وتمثل فيه بقول ابن الرومى:

مهما تقل فسهام منك مرسلة
وفوك قوسك والاعراض اغراض
وما تكلمت الا قلت فاحشة
كان فكيك للاغراض مقراض

وهذا احد الفصول التي ذكرها ابن بسام من انشاء صاحبنا وابهم المعنى به: «نعى الينا فلان، وكان فى غفلته وبعد فطنته وغباوة شاهده وفجاجة شمائله وشكاسة خلائقه آية من آيات خالقه، من رجل نسمة ريب، وقرارة حرب، على لسانه نملة تدب على اعراض الناس لا يرعى لاحد ذمة، فصار مشنوأ اليهم ومرهقا فى دينه محروما لم ترتفع له قط حال، ولا فارقه اقلاع ولا آتيح مرفق الا من حيث يرتشى لتلقين خصم أو توهين عقد و دفع حق بمشاغبة أو بهت خصم بمعاندة، له فى ذلك نوادر محفوظة، وكان مع هذه المساوى وسخ الثياب زمن المروءة، مكحل الاظفور، وضر الطوق دانى الغائط من المائدة، لا يتقذر شيئا ألبتة وهو اول من لاعن زوجه بالاندلس فأرى الناس العمل فى اللعان بالعيان .

والمعنى بهذا الكلام البذىء هو الفقيه ابن الهندى المشهور من اعلام القطر الاندلسى، فأنه الذى لاعن زوجته كما يذكر الفقهاء فى باب اللعان بحكم صاحب الشرطة، وعوتب فى ذلك فقال اردت احياء سنة اميتت حكاه عنه ابن عات وتعقبه البرزلى بقوله: «قد أغنى الله تعالى عنه بما

جاء فى كتابه، يعنى من الطلاق والستر أولى ولكن فات البرزلى ان اللعان قد يكون لنفى نسب فيجب ثم هو مما يدرأ الحد عن الزوجة والقدف عن الزوج، فلم يشرع عبثا بل لحفظ كرامة الزوجين معا، وعليه فتشنيع ابن حيان على ابن الهندى به هو من التعنت ان لم يكن من الاعتراض على الشريعة.

ثم لننظر كيف يأكل لحم هذا الفقيه الكبير بعد موته، وكيف يعيبه بما وقع فيه هو من ثلب الاعراض، الى غير ذلك من السب القذر وكان ذلك مما نهى عنه شرعا، فقد جاء فى الحديث: سباب المومن فسوق.

وهذا انما هو نموذج واحدمن عدة فصول أثبتها ابن بسام فى منتقى كلامه وأبهم المعنيين بها ولكن الباحث المعروف الدكتور محمود علي مكى توصل الى معرفة البعض منهم وسماهم، فيما كتبه على القطعة التى نشرها من المقتبس، وهم ابن الحصار وابن مغيث وابن المكوى وابن ذكوان وابن زرب، وهؤلاء كلهم من أعيان الفقهاء ورجال الفتوى والقضاء المعمول بأقوالهم وأحكامهم فى المذهب المالكى فيا لجرأة هذا الرجل على الحرمات وخاصة أهل العلم والدين.

والدكتور مكى على علمه وتحقيقه هو ممن يشايع ابن حيان وينتصر له حتى أنه وصف تحرج ابن بشكوال من نقل مطاعن ابن حيان فى أهل عصره وما حكاه من رؤيا ابن عون له فى المنام، بالتدين الساذج، فالتدين الحكيم اذن هو سلوك ابن حيان !..

ويذكرنى هذا الكلام بقول أمين الريحانى وهو يسخر بلحى رهبان لبنان فى صورة دفاع عنهم: «جعله الله دفاعا مقبولا لديهم فيدافعون عنى يوم القيامة كما قال ابن خلدون متمنيا فى دفاعه عن حسب الادارسة ونسبهم (1).. فالموضوع بحاله لان ابن خلدون مقعد التاريخ وواضع علم الاجتماع تعرض فى مقدمته لتفنيد بعض مزاعم المؤرخين ومنها الطعن فى نسب الادارسة بما تقوله خصومهم من أمثال البكرى والمراونية الاندلسيين فضلا عن العباسيين البغداديين على ادريس بن ادريس من نسبته لراشد مولى أبيه ضيقا بدولتهم العلوية التى أنشأوها فى المغرب وتحطيما لها، فتصدى لهم بالانكار والتنديد، غيرة على آل البيت وانتصارا لهم، وقال

(1) أمين الريحانى (المغرب الاقصى) رحلة فى منطقة الحماية الاسبانية ص 255.

فى آخر كلامه: انما اطنبت فى هذا الرد سدا لابواب الريب، ودفعا فى صدر الحاسد لما سمعته أذناى من قائله المعتدى القادح فى نسبهم بفريته، وينقله بزعمه عن بعض مؤرخى المغرب، ممن انحرف عن آهل البيت، وارتاب فى الايمان بسلفهم، والا فالمحل منزه عن ذلك معصوم منه، ونفى العيب حيث يستحيل العيب، عيب لكنى جادلت عنهم في الحياة الدنيا وأرجو أن يجادلوا غنى يوم القيامة.

وليس قصدنا ان ندل على ما فى كلام الريحانى من الاستهزاء بقضايا الدين ورجاله، ولكنا نريد ان ننبه الى روح الحفاظ التى تقمصها فيلسوف المؤرخين ، ولقنها لاصحاب المهنة فى هذه الفذلكة وأمثالها مما ضمنه فى مقدمته الخالدة، اشعارا بأن التاريخ ليس قصيدة هجاء او مقالة تشهير بخصم ولكنه اعلام نزيه وانباء صادق وقول حق، وذمة وضمير ومسؤولية !..

وقد وضع ابن خلدون قواعد هذا العلم وقرر آصوله، ولكنه لم يطبقها على احداث التاريخ التى حكاها فى كتابه الكبير، اكتفاء بما آعطاه من أمثلة تطبيقية فى المقدمة، لانه لو تتبع ذلك لما انتهى الى غاية ولوقع فى حرج كبير، هذا

مع العلم بأنه لم يكن ليفوته مثل هراء صاحبنا ابن حيان ، ولكنه اعرض عنه اعراض الكرام يقينا بكونه ليس من التاريخ فى شىء.

وتحامل المؤرخين او تحيزهم باعتبار العامل السياسى وركونهم الى حكام عصرهم هما من القواسم المشتركة بينهم جميعا قدماء ومحدثين وما ابن حيان الا واحد منهم، فتوليه لخلفاء قرطبة وبنى جهور من ملوك الطوائف هو مما تطفح به صفحات تاريخه، ولكن هذا ليس مما يعنينا الان، فنحن انما نتكلم على هذه الانتقادات الاعتباطية والنزوات الشخصية التى تفرض على التاريخ وتدس بين ثناياه، ومن منا لا ينكرها وقد أنكرها ابن حيان نفسه فى كلامه عن أحد الشعراء «الذى أرسل آفة على أهل بيت لامر أوذى به من بعضهم، فعمم بهجائه وافحش لهم» (1) على ان هذا من شأن الشعراء، وليس من شأن المؤرخين .

ولنستمع الى كلمة قيمة فى هذا الصدد من كتاب سعيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكى قال وهو يتحدث عن طوائف

(1) انظر ص 176 من المقتبس تحقيق د، مكى، نشر المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية القاهرة،

العلماء: «ومنهم المؤرخون. وهم على شفا جرف هـار، لانهم يتسلطون على أعراض الناس، وربما نقلوا مجرد مايبلغهم من كاذب أو صادق، فلابد ان يكون المـؤرخ عالما حـافظا عـدلا عارفا بحال من يترجمه، ليس بينه وبينه من الصـداقة ما قد يحمله على التعصب له، ولا من العداوة ما يحمله علـى الغض منه، وربما كان الباعث له على النيـل منـه مخالـفته لـه فى العقيدة أو المذهب... وكثيرا ما يتفق هذا لشيخنـا الذهبى فى حق الاشاعرة، والذهبى استاذنا والحق أحـق ان يتبع .. وقد عقد ابن عبـد البر بابا فى أن كلام العلمـاء بعضهم فى بعض لا يقبل، وان كان كل منهم بمفرده ثقة حجة.

ومنهم من تأخذه فى الفروع الحمية لبعض المذاهب ويركب العصب والذلول فى العصبية، وهذا من سوء أخلاقهـم ولقد رأيت فـى طوائف المذاهب من يبالغ فى التعصب بحيث يمتنع بعضهم من الصلاة خلف بعض، ولو كان الشافعـى وأبو حنيفة حيين لشددا النكير على هذه الطائفة» انتهى باختصار .

وبالاشارة الـى ما ذكره من تعصب الفقهاء وازراء بعضهم على بعض، نذكر هنا ابن حزم عصرى ابن حيان، فأنه فى هذا الباب قد جاوز كـل الحدود فى الـطعن عـلـى الائـمـة

والاستخفاف بهم، اعتداداً بمذهبه، واعتقاداً منه بأنه هو الصواب الذى لا يرقى اليه خطأ حتى شبه بعض العلماء سلاطة لسانه بسيف الحجاج.

ولعله ما اثنى على صاحبنا ابن حيان الا لتوافقه واياه فى هذا الامر:

ونذكر من الادباء الفتح بن خاقان وما كتبه عن أبى بكر ابن باجة فى قلائد العقيان من السخافات حتى أنه طعن فى دينه، وهو العبقرى النافذ البصر فى فنون العلم والادب، والذى يعد مفخرة من مفاخر الاندلس برغم كل ما قاله فيه صاحب القلائد.

ومن المؤسف ان تتجلى هذه الظاهرة فى فئة من أهل العلم والادب وهى ظاهرة مرضية نفسية لا تشرف، صاحبها بحال، ولكن الذى يبعث على الارتياح هو ان احدا لا يبالى بها ولا يحملها الا على محملها الكريه من الغرض والانانية واختلال المزاج، ومن ثم حكم الفقهاء بعدم جواز شهادة العلماء بعضهم فى بعض لما يكتنفها من الشبهة وسوء القصد الا من رحم ربك، وبالله التوفيق.

سـابق البـربري مـن جـديد

ـ ا ـ

فى البحث الذى كتبته عن هذا الشاعر الخالد، موزعا على ثلاث مقالات، فى فترات متباعدة لم أفتأ أؤمل انى ربما عدت اليه فى كل مقالة منها وها أناذا آعود اليه فعـلا، بعد مرور فترة طويلة ، على المقالة الثالثة، لا قول شيئا جديدا عنه وان قل، فان ذلك البحث انما تكون من مثل هـذه النتف التـى لم أزل أتصيدها من مختلف الكتب المظان وغيرها سنين عديدة.

فقد نشر فى العراق آخيرا كتاب حماسة الظـراف لابى محمد عبد الله بن محمد العبدلكانى الزوزنى بتحقيـق محمد جبار المعيبد، وهو يحتوى على بعض شعر سابق ممـا ذكرته فى بحثى المشار اليه، والذى اعتمده المحقق الفاضـل، وزاد ببعض أبيات منها بيتان يندرجان في قصيدته الرائية المذكورة فى المنقالة الاولى، وهما .

وربمـا جاءنى مـا لا أؤملـه   وربما فات مأمـول ومنتظر

من عاش أدرك في الاعداء بغيته   ومن يمت فله الايام تنتصر

ومنها بيت مفردمن قطعة نسبها المؤلف الى صالح بن جناح وهو البيت آلثانى الذى ذكر المحقق أنه منسوب لسابق فى كـتاب

غريب الحديث ونص القطعة كاملة:

اذا الواشى لديك بغى صديقا
فلا تدع الصدق بقول واش

فلا تمذل بسرك، كل سر
اذا ما جاوز الاثنين فاش

ولا تصحب قرين السوء وانظر
لنفسك من تقارن او تماشى

ومن يرفع مليك الدهر يرفع
ومن يخفض فليس بذى انتعاش

هذا وممن ذكر شاعرنا أبو حيان التوحيدى فى كتابه الامتاع والمؤانسة، الجزء الثالث، حين قال:(واعترص حديث العلم فأنشد ابن عبيد الكاتب لسابق البربرى قوله:

العلم يجلو العمى عن قلب صاحبه
كما يجلى سواد الظلمة القمر

ولكن وصف البربرى تصحف فى الطبع بالزبيدى، والكتاب كما هو ثابت فى صفحته الاولى مطبوع بتصحيح الاستاذين أحمد أمين واحمد الزين وتحقيقهما، وذلك مما يدل على الجهالة الفاشية بهذا الشاعر الكبير: والبيت المذكور هو

من القصيدة الرائية المشار اليها آنفا.

وذكرنا فى المقالة الثانية بيتين من قصيدة لامية طويلة له على اختلاف فى بعض ألفاظها عما فى القصيدة، كان سفيان الثورى يتمثل بهما، كما فى جامع بيان العلم لابن عبد البر وأغفلنا ذكر كون الحسن البصرى كذلك كان يتمثل بهما على ما جاء فى رواية أخرى لابن ع . البر، وثم بيت اخر كان يتمثل به الحسن من هذه القصيدة لم يرد فيها، وانما ذكره ابن عبد البر وهو قوله

يسر الفتى ما كان قدم من تقى

اذا عرف الداء الذى هو قاتله

ولم نثبته فى البحث.

ونسيت أن انبه فى المقالة الثالثة على أن البيت الذى انشده ابن عبد البر فى كتاب الجامع وأوله: والعلم يشفى، والاخر وأوله: موت التقى حياة، ربما كانا هما والابيات الستة التى وردت فى المقالة الاولى، من قصيدة واحدة، لانها كلها من بحر واحد وهو البسيط وقافية واحدة، وهى الهمزة المضمومة.

ولا يفوتنى ان آشير الى البيت الرجز: قد قيل قبلى فى

الزمان الاقدم:: ومـا يحتمل ان يكون من عـلاقة بينه وبين الرجزية التى أنشدها ابن عبد البر فى أدب التعليم والتفقه وهى مما ينسب الى المامون :، وفى نفسى من هذه النسبة شىء وقد جعل لها الشيخ مرتضى الحسينـى صـدرا وذيـلا كمـا بفهرسته، والسؤال القائم المحتمل هو ألا تكون هذه الرجزية من نظم سابق؟

ثم نلاحظ إنه بعد نشر بحثنا عن سابق فى مقالات ثلاث بأعداد متفرقة من مجلة دعوة الحق، ثم نشره مجمـوعا بمجلة المجمع العلمى العربى بدمشق وصدر عنه فى شكل كتيب وقع الالتفات الى هـذا الشاعر والعناية به، والكتابة عنه وذكره فى تاريخ الادب المغربى كما فعل الاساتـذة مؤلفو (تـاريخ الادب والنصوص) الادبية للسنة الـدراسية الثانويـة، وفقا للمنهج الحديث الذى أقرته وزارة التربية الوطنـية المغربية، والدكتور عباس الجرارى فى كتابه الجديد (الادب المغـربى من خـلال ظواهره وقضايا،) والاولون عدوه مغربيا أقصويـا خالصا وذكروه على أنه اول شاعر نبـغ فى المغرب عـلى عهد الولاة أى قبل العهد الادريسى وهو مـن حيث التاريخ كذلك ولكن من حيث المغربية الاقصوية نحن لم نجزم بشىء فى ذلك.

والثانى ذكر اننا بعدما قلنا انه ربما كـان أول شاعر مغربى يعنى بالمعنى الخاص، عدنا الى القول بأننا لم نتحقق بعد من مغربيته الضيقة، وليس فى كـلامنا شىء مـن الزعم المذكور فانا من أول الامر، لم ننسبه الا الى المغرب الكبير ولم يتحقق عندنا البلد الذى ينتمـى اليه من هذا المـغرب لا أولا ولا أخيرا، ولعل ما كتب برأس أولى المقالات عـنه فى دعوة الحق وهو هذه العبارة: (دراسات فى تاريخ الادب المغربى،) هو ما أوهم الكاتبين ان سابقا مغربى أقصوى واننا قلنا بذلك ثم رجعنا عنه، والمسؤولية فى هذا تقع على محرر المجلة، فهو الذى كتب العبارة المذكورة، وكثيرا ما يتدخل محررو الصحف فى مقالات الكتاب بـما لا يكون من غـرض الكاتب وربـما عاكس قصده، وقد وقع لنا معهم كثير من ذلك، وهذا منه

ونخلص من هذا المقال الصغير بزيـادة أربعة أبيـات على ما أحصيناه فى البحث من شعر سابق، وهـو 169 بيت فيصير الحاصل الآن 173 بيت والبقية تأتى ان شاء الله

— 2 —

نشرنا منذ أيام كلمة عن هذا الشاعر الكبيـر وصلنا بها ما سبق لنا من بحث عنه وعن شعره فـى مقالات جمـعت فى

كتيب بعناية المجمع العلمى العربى بدمشق، واستدركنا فيها بعض المعلومات التى وقفنا عليها من بعد، وبعض الابيات الشعرية التى لم تثبت فى ذلك البحث، وقلنا فى آخرها لعلنا نعود اليه فى فرصة اخرى حين يجد عندنا ما يحملنا على هذه العودة .

ولم يطل بنا العهد لتحقيق هذا الرجاء، فقد نشر فى العراق كتاب الزاهر لابى بكر القاسم بن محمد الانبارى المتوفى سنة 328 بتحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن فى مجلدين كبيرين وهو فى معانى الكلمات التى يستعملها الناس ويعنى بذلك اللغة والامثال، واشتمل هذا الكتاب على ذكر سابق مرتين فى مجلديه الاول والثانى ورواية بيتين من الشعر له زائدين على ما ذكرناه له فيما كتبنا عنه ذلك أن المحقق أورد بحثنا المشار اليه في مصادر تحقيقه لكتاب الزاهر وأعتبر هذين البيتين مما خلا منهما، كما خلا الزاهر من كل ما نشرناه لسابق من الاشعار

والبيت الاول يقع عند ابن الانبارى أثناء كلامه على **قولهم فلان سفيه بمعنى قليل** الحلم وثوب سفيه أى خفيف رقيق، وانشد على ذلك بيتا لذى الرمة، **ثم قال:**

«وقال سابق:

سبقت يداك له بعاجل طعنة

سفهت لمنفذها أصول جوانح

ويروى للصلتان ولزياد الاعجم، اراد اسرع الدم منها وبادر وخف، ولاشك ان هذا البيت من قصيدة طويلة وان يكن متنازعا عليه بين سابق وشاعرين اخرين

أما البيت الثانى فعزاه الى سابق محقق الكتاب فى تعليقه عليه، وابن الانبارى لم ينسبه وانما قال فيه:

وقال الاخر

يا نفس ان سبيل الرشد واضحة

منيرة كبياض الفجر غراء

وجاء فى التعليق عليه : «سابق البربرى فى المذكر والمؤنث لابن الانبارى 230 وليس فى شعره، يعنى شعره الذى جمعناه له فى بحثنا، وقد أورد الزاهر هذا الشاهد فى قولهم : قتل فى سبيل الله .

على كل ان كتابا يقع فى أكثر من 1300 صفحة لا يرد اسم سابق فيه الا مرتين اثنين لدليل على ندرة أخبار هذا الشاعر كما يدل على انه من الذين يستشهد بشعرهم فى مسائل

العربية لغة ونحوا، وقد تقدمت الاشارة الى ذلك فى كتابتنا السابقة عنه، والبيت الاول المتنازع فيه لا يشبه عامة شعره بخلاف الثانى فأنه من مشربه الخاص، وبذلك فأننا نضيف هذا الى عدد الابيات التى نسبناها له باطمئنان ونتحفظ فى ذلك، والى فرصة أخرى بحول الله.

— 3 —

قلنا فى اخر مقالة كتبناها عن سابق البربرى بعد نشر شعره مجموعا فى كتيب صغير يتكون من المقالات الاولى التى نشرت بمجلة المجمع العلمى العربى بدمشق، وتفضل المجمع باخراجها فى الكتيب المشار اليه، معبرين عن أملنا فى العثور على شيء جديد له: والى فرصة أخرى بحول الله .

وها هى الفرصة قد أمكنتنا من ذلك، وكنا في تلك المقالة ومقالة اخرى قبلها استدركنا من شعر سابق خمسة أبيات أو ستة اذا لم نعتبر الشك الذى طرقناه فى أحد هذه الابيات، والان نستدرك بيتا سابعا وقفنا عليه فى شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابى بكر الانبارى كذلك الصادر عن دار المعارف فى سلسلة ذخائر العرب بتحقيق الاستاذ عبد السلام هارون، وهو هذا :

فلم ينج منهم فى البحور ملجج

ولم ينج من جاب الصخور اجتيابها

أورده في الاستشهاد على معنى جاب الصخر اى شقه وبنى فيه كما في الاية الكريمة (الذين جابوا الصخر بالواد) ويلوح عليه أنه من شعر سابق

وقرأت في مجلة المستمع العربي (العدد 392) للاديب حسن الكرمى بمقاله المعنون: «قول على قول، هذا البيت منسوبا لسابق:

ان عبت يوما على قوم بعائبة

أمرا أتوه فلا تصنع كما صنعوا

ولم ينسبه الى أى مصدر ولكن الكاتب مطلع يصح الوثوق به .

ورجعت لكتاب بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب تأليف السيد محمود شكرى الالوسى، وكنت قرأته قديما، وقد وقع فى وهلى انه ذكر سابقا، وبالفعل وجدت اسم سابق فى تعليق على الابيات المعروفة : ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... نسبها المؤلف للمتوكل الليثى، وهى مما نسب لعدة شعراء منهم شاعرنا، وكان ذلك موجب ذكره من قبل المعلق صديقنا العلامة محمد بهجة الاثرى.

ثم انه ذكره أيضا فى الكلام على أما بعد وموضعها من

الكلام، واستشهد بمطلع قصيدة سابق الرائيـة المذكورة في الكتيب، وهو الذى يقول فيه :

بسم الذى انزلت من عنده السور
الحمد لله، أمـا بعد يا عمر

وأعقبه بالبيت الذى بعده

وأنشد له اليوسى فى كتابه زهـر الاكم هذا البيت فـى كتمان السر :

فلا تخبـر بسـرك ، أى سـر
اذا ما جـاوز الاثنيـن جـاشا

وقيل الاثنـان هنا الشفتان، وهو تـفسير حسن وهذا أحـد الابيات الاربعة التى ذكرناها فى المقـالة الاولـى بعد مقالات الكتيب، نقلا عن كتاب حماسة الظراف للـزوزنى، وهى فى هذا الكتاب منسوبة لغير سابق، ولكن المحقـق الفاضل لهذا الكتاب قال ان البيت الثانى منها هو لسابق كـما نسب اليه فى كتاب غريب الحديث، وها هو اليوسى ينسبه ألـيه أيضا، وان كان فى بعض لفظه مخالفة لما فى كتابى الحماسة والغريب. وأمر، آخر، وهـو أن قافيته فى الابيـات المشار اليهـا وفى كتاب الغريب مكسورة، وفى زهر الاكـم مفتوحـة، وجـاءت

بلفظ جاشا وهى فى المصدرين الاولين فاش، وذلك هو الانسب من جهة المعنى واللفظ، فهل ما عند اليوسى تصحيف؟..

الخلاصة ان هذين البيتين جديـدان يضافان الى الحصيلة السابقـة فيصير جملة ما بيدنا مـن شعره 176 بيـت أو بيتا، والبقية تأتى ان شاء الله ،

— 4 —

بعد الكتيب الذى ضمنته ما تحصلت عليه من ترجمة هـذا هذا الشاعر المغربى الرائد وشعره وصدر عن مجمع اللغـة العربية بدمشق منذ أكثر من 15 سنة، لم أزل أتتبع ما يقـع لدى من أخباره وأقف عليه من شعره في مطالعتى وقراءتى كما فعلت فى مادة الكتيب المـذكور خلال سنوات عديدة لتفـرق أخبار سابق وضياع شعره الذى كان مدونا هو وأخباره حسبما يستفاد من فهرس ابن خير الاندلسى وقد كتبت عنه بعد ذلك ثلاث مقالات فى فترات متباعدة مبادرة بما أظفر به من شعره ولو بيتا أو بيتين أزفهما للمهتمين بمثل هذه الابحاث وفى كل مرة أقول والى فرصة أخرى ان شاء الله .

وهذه مقالة رابعة فى الموضوع أثبت فيها بعض الابيات من شعره لم تأت فى الكتيب المشار اليه ولا فى المقالات التى

كتبتها بعده، وقد جاء فى كتاب شعر الفقهاء للدكتور حسنى ناعسة نقلا عن كتاب شعر الدعوة الاسلامية فى العصر الاموى لعبد العـزيز الزيد ومحمد الاطـرم الذى لم نقف عليه مع الاهتمام بطلبه من الجهات التى صدر عنها وصاحب هذا الكتاب قد أطلع على ما جمـعناه من شعره سابق وأثبت بعـضه فـى كتابه مشيرا الى مصدره على طريقة العلماء.

والمهم أن ما انفرد به هذا الكتاب عن كتيبنا من شعـر سابق هو خمسة أبيات لا غير ثلاثة منها بحسب ما يظهر هـى من قصيدته الرائية الطويلة التى رويناها بنصها الكامل عـن كـتاب مناقب عمر بن عبد العزيز للحافظ ابن الجوزى أولهـا قولـــــــه :

لكل بيت خراب بعد جدتـه

ومن وراء الشباب الموت والكبر

وقد أنشد قبل البيت الذى أوله: والموت جسر ،، والثانى والثالث لم يعين موضعهما وهذا نصهما :

مالى أرى الناس والدنيا موليـة

وكل حبـل عليها سوف ينبتـر

لا يشعرون بما فى دينهم نقصوا

جهلا وان نقصت دنياهم شعـروا

والبيت الرابع نرجح آنه من قصيدة طويلة هى التى روينا منها قطعة من حماسة الجراوى وأخرى من شرح المقامات الحريرية للشريسى وثالثة منه آيضا وهو هذا :

وكل نفس لها زور يصبحها

من المنية يوما أو يمسيها

والخامس هو هذا :

متى تكونوا على منهاج أولكم

وتصبروا عن هوى الدنيا كما صبروا

والغالب أنه من الرائية الطويلة وأخرنا ايراده لنورد تعليقا عليه للمؤلف يقول فيه : «ومما يلفت النظر فى شعر سابق تفاوت مستواه ولا أعنى التفاوت المألوف فى نتاج كل شاعر وانما أعنى أن يجزم المضارع بعد متى الاستفهامية» وكان من حق الشاعر على المؤلف أن يخرج قوله على وجه معروف كحمل متى الاستفهامية على الشرطية الجازمة وان لم يكن هناك شرط أو على أنها شرطية جازمة والجواب محذوف والوجه الاول ورد فى أقوال النحاة تخريجا لقراءة ابن محصين قوله تعالى «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة، بضم الميم والغاء عمل أن حملا

على ما المصدرية وأنشدوا عليه قول الشاعر :

ياصاحبى فدت نفسى نفوسكما

وحيثما كنتما لقيتما رشدا

ان تحملا حاجة لى خف محملها

تستوجبا منة عندى بها ويدا

ان تقرءان على أسماء ويحكما

منى السلام وأن لا تشعرا أحدا

فرفع تقرءان مع دخول أن عليها، ولا ننسى أن سابقا هو ممن يحتج به عند علماء النحو ثم ان المؤلف سامحه الله تعرض لبعض المؤاخذات بحسب نظره تتعلق بتباعد مخارج الحروف فى البيت الآتى .

لكم بيوت بمستن السيول وما

يبقى على الماء بيت أسه مدر

وقال : .. وهذه الهفوات اللغوية والفنية اذا لم يكن لتحريف الناسخين فيها نصيب تؤيد مغربية سابق، وقد يمكن أن يستنبط منها أنه لم يقل الشعر قبل وفادته الشام (كذا) واتقانه العربية» ومعنى هذا الطعن فى عربية المغاربة وجعلهم بحيث اذا لم يفدوا على المشرق لا يعتد بعربيتهم ومع

أن العربية هى من المشـــرق لكن الامر فيها بعد انقــراض عصر السليقة صار سواء بالنسبة الى المشرق والمغرب معا، وقد كان من المغاربة من حفظــوا على المشارقة فى بعــض الاحيان علم العربية كابن مالــك وابن حيان وابن عصــفور والشلوبين وغيرهم وكانت مقدمة ابن أجروم هى ألف بـــاء النحو فى المشرق والمغرب عبر عدة قرون .

وباضافة الابيات الخمسة التى اشتملت عليها هذه المقالة يصير ما عندنا من شعر سابق 182 بيتا .

— 5 —

كانت العودة الى سابق البربرى فى هذه المرة أقرب مــما نظن فقد كنا وقفنا على كتاب بهجة المجالس للحافظ ابن عبد البر فى طبعته المصرية التى انما وصلنا منها الجزء الاول وقد ألم ببعض أبيات من شعره ولكنا آثرنا الانتظار حتى يأتينــا الجزء الثانى منه أو على الاصح بقية الكتاب فطال انتظارنــا وها هو الكتاب يأتينا كاملا فى ثلاثة أجزاء من طبع بيــروت بتحقيق الاستاذ محمد مــوسى الخولى وبعد تصفحه وجدنــاه يحتوى على سبعة عشر بيتا مما لم يتقدم ذكره فى المجموعــة الاولى وفــى المقالات التى تلتها من بــعد فضلا عن خمســة أبيات وقع الالمام بها فى المجموعة وما الحق بها .

وهذا العدد الكثير فى الجملة من شعر سابق الذى احتواه كتاب ابن عبد البر يدل على أن ديوان شعر سابق كان موجودا بالاندلس حسبما علمنا من فهرس ابن خير وروايته له على ما أشير اليه فى المجموعة المنشورة بعناية مجمع دمشق الا أن هذا العدد المذكور من أبيات شعر سابق انما يتمحص له منه بغير نزاع تسعة أبيات أما الثمانية الباقية فهى من قصيدة قافية يقول محقق الكتاب انها لصالح بن عبد القدوس ذكرها له ياقوت فى معجم الادباء .

ولاشك ان ابن عبد البر انما نقلها من ديوان سابق فهى من المختلف فى نسبته .

ونذكر أولا الابيات التسعة التى لا نزاع فى نسبتها الى صاحبنا سابق مما نسبه اليه ابن عبد البر وهى أربعة ميمية يقول فيها :

يا أيها الظاعن فى حظه

(و) انما الظاعن مثل المقيم

كم من لبيب عاقل قلب

م صحح الجسم مقل عديم

ومن جهول مكثر ماله

ذلك تقدير العزيز العليم

حظك يأتيك وان لم ترم
ما ضر من يرزق الا يريم

وبيت مفرد هو :

جنى الضغائن آباء لنا سلفوا
فلن تبيد وللاباء أبناء

ويظهر أنه من قصيدة همزية من بحر البسيط سبق أن ذكرنا منها أبياتا متفرقة وبيت آخر مفرد هذا نصه :

وتأخير ما يرجى بلاء مبرح
وأفضل ما يرجى من الخير عاجله

ولعله من القصيدة التى رويناها عن ابن عساكر على هذا الوزن وبهذه القافية وهذان البيتان :

لسانك للدنيا عدو مباين
وقلبك فيها للسان مباين
وما ضرها ما قلت فيها وقد صفا
لها منك ود فى فؤادك كامن

ونرى أنهما من قصيدة بهذا الوزن وهذه القافية ذكرنا منها فى المجموعة عدة أبيات، وأخيرا بيت هو :

جمعت لها آكلا وذما بألسن
أليس عجيبا ذمها واحتلابها

ويظهر أنه فى الدنيا وتعلق الناس بها مع ذمها، ولا يبعد أن يكون من قصيدة لم يصلنا منها الان الا هذا البيت، والبيت السابق عن شرح القصائد السبع الطوال لابى بكر الانبارى

أما الابيات القافية المحتمل أن تكون له ولصالح بن عبد القدوس فهى مع المطلع :

المرء يجمع والزمان يفرق
ويظل يرقع والخطوب تمزق

ولان يعادى عاقلا خير له
من أن يكون له صديق أحمق

والناس فى طلب المعاش وانما
بالجد يرزق منهم من يرزق

ولو أنهم رزقوا على أقدارهم
ألفيت أكثر من ترى يتصدق

ما الناس الا عاملان فعامل
قد مات من عطش وآخر يغرق

ان الترفق للمقيم موافق
واذا يسافر فالترفق أوفق

لو سار ألف مدجج فى حاجة
لم يلقها الا الذى يترفق

لا آلفينـــك ثاويا فـــى غـــربـــة

ان الغـــريب بكل سهـــم يرشـــق

بقى مما ذكره ابن عبد البر فى كتابه هذا من شعر سابق الذى تقدم لـــنا الالمام به بيتان من القطعـــة الشينية التـــى أولهـــــــا :

اذا الـــواشى بغى يوما صديـــقا ،

وثلاثة أبيات من القصيدة الزهدية التى أوردنا منها قطعا متفرقة عن حماســـة الجراوى وعن الشريسى وهى مـــن بحر البسيط وقافية الياء والهاء .

وباعتبار القطع القافية التى قيل آنها من قصيـــدة لصالح بـــن عبد القـــدوس، من شعر سابق، وهى شديدة الشبـــه بنفسه وآسلوبه وقد نسبها اليه الحافظ ابن عبد البر وكلا الشـــا والراوى متقدم على صالح وياقـــوت، يصبح معنا سبعة عشـــر بيتا أخرى من شعر سابق نضيفها الى ما ذكرناه قبـــل فنخرج بتسعة وتسعين ومئة بيت (199) والبقية تآتى ان شاء اللـــه .

نبذة من شعر ابراهيم بن سهل
ليست في نسخ دواوينه المطبوعة

يظهر ان شعر ابراهيم بن سهل لم يجمع كله، وان نسخ دواوينه المطبوعة ينقصها غير قليل من شعره الذى يوجد متفرقا فى أكثر من كتاب من كتب الادب، أو بعض مخطوطات ديوانه التى لم تطبع بعد ومنه نبذة لا بأس بها فاتت جميع نسخ الديوان حتى المطبوعة الاخيرة التى استدركت جملة صالحة من متفرق شعره.

وهذه النبذة الشعرية من فائت دواوين بن سهل تقع ضمن أوراق من مجموع مخطوط بمكتبتنا الخاصة يشتمل على عدة مؤلفات منها شرح الافرانى لموشح ابن سهل ويبلغ عددها احدى عشرة صفحة، وكلها من شعر صاحبنا بحيث تكون ديوانا صغيرا او منتخبا من ديوان له، ولاول مرة قرأتها لاحظت ان بعض شعرها غير معروف، وقابلتها بالديوان المطبوع بمصر فى مطبعة التقدم بمعرفة الشيخ حسن العطار وعناية الكتبى المغربى المعروف مولاى احمد القادرى فتأكد لى ذلك.

ولما لم أكن أملك غيـر هذه الطبعة من ديوان ابن سهـل فأنى لم اهتم بالامر، وبقيت كذلك الى ان وقفت على الطبعة الجديدة التى أصدرتها دار صادر ببيروت بمقدمة للدكتـوز احسان عباس بتاريخ 1387هـ الموافق 1967م وفى التصدير الذى كتبه المشرفون على الدار لهذه الطبعـة ذكروا أن الـديوان طبع طبعة حجرية بأشراف الشيخ حسـن العـطار سنـة 1302 وطبع بمطبعة التـرقى بمصر باشـراف الشيخ أحمد حسين القرنى سنة 1324هـ 1906م وطبع بدار صادر أولا سنة 1951 قبل هذه الطبعة الجديدة ولم يشيروا الى طبـعة القادرى التـى بأيدينا وقالوا أن الدكتور احسان اطلعهم على صورة مخطوطة من الديوان أحضرها من المغرب ولكنها غير تامة، بل بها بتر ضاعت بسببه بقية حرف الراء والكاف واللام وبعـض الميم، فأكملوا هذا النقص فى الطبعة الجديدة مـن نسخ الـديوان المطبوعة فيما قبل وأضافوا الى ذلك ما وجدوه من شعر ابن سهل فى مصادر أخرى بلغت فى تعدادها أحد عشر كتابا من المظان ما بين مغربى ومشرقى .

وإذْ ذاكَ وجدت نفسى امام عـمل متكامـل يمـكن بغاية

السهولة مقابلة الاوراق المذكورة به، لمعـرفة ما اذا كانت تلك الاشعار غير المعروفة مما تنفـرد به عـن جمـيع نسخ الديوان المطبوعة وما أضيف اليها من الكتب المظان.

وقد وجدت الأمر كذلك بالفعل، وتبين لـى ان شعر ابن سهل لم يدون كله، وان جمعه كان على فترات فلذلك تعددت دواوينه، واشتمل بعضها على زيادات مـن قبيـل ما فـى هذه الاوراق التى ربما كانت مشروعا لديوان او منتخبا منه ومع ذلك فقد بقى منه ما تفرق فى مصادر اخرى مما جمعته طبعة دار صادر الجديدة.

وقد كان عملى اولا استخراج هـذه الزيادات مـن فائت دواوين شعر ابن سهل الذى انفردت به الاوراق المومى اليها وهى ما بين قصيدة وابيات ومخـمس: ست قطع تـجىء فى آزيد من ستين بيتا بحسب اشطار الـمخمس وقـد جـردتها وضبطتها وعلقت عليها بما يلزم واثبت ما كتب على بعضها فى طرة الاصل، ولم أراع فى ترتيبها الا تـرتيبها فـى الاوراق، وهو على ما يظهر كان كما اتفق لا على الحروف ولا غيرها.

ولابد من الاشارة الى ان كاتـب هذه الاوراق هو كاتب التآليف التى يتكون منها المجموع واسمه محمد بن محمد بن

اسماعيل بن عمر بن صالح الحسنى التلمساني يدعى ابن مخلوف نزيل طنجة وانتساخ بعض هذه المؤلفات مؤرخ بعام 1292هـ وبعضها وهو شرح التوشيح الذى تاتى الاوراق الشعرية بأثره تاريخه عام 1295 فمرجعها اذن الى اواخر القرن الثالث عشر والخط عادى الى رديء ومداده فاتح الى ناصل وكذلك الألوان التى تتخلله وهى ما بين أحمر فاقع وأزرق ومركب منهما اى بنفسبجي والكاتب يعنى باختلاف النسخ وتفسير معنى بعض الابيات فى الطرة وهو مع ذلك يقع في كثير من الخطأ

وتبتدىء اشعار الاوراق بلفظ الحمد لله وهذه العبارة: ولابن سهل عفا الله عنه وتسترسل هكذا: وله أيضا.

ثم انى رقمت اشعار هذه الاوراق فكان عددها ثلاثة وثلاثين، بادخال الزيادات المقصودة بالذات وفائدة ذلك ان أعطى لكل رقم منها رقمه فى الديوان اذ أن اشعار الديوان فى طبعته الجديدة كلها مرقمة، فتعرف بذلك أشعار الاوراق ما عدا الزيادات الست التى ستذكر بنصها، فأرقامها هى التى ستسقط من هذا الجرد.

وعمل آخر كان لابد من القيام به، وهو مقابلة هذه

الاشعار بنظائرها فى الديوان لتصحيحها أو معـرفة اختـلاف النسخ او وجود بعض الابيات الزائدة او غير ذلـك، وقد تم هذا العمل بغاية الدقة كما سيرى ذلك فى محله.

والنظرة الاولى الى هذه الاشعار تقـضى بأنها لابن سهل، فهى فى موضوع الغزل الذى يغلب على شعره وكاد يختص به، وهى كثيرا ما تحوم على المعانى المستقاة من النصوص الدينية وأخبار الانبياء وخاصة سيدنا موسى عليه السلام، والى ذلك فهى تتروا ح بين الاجادة والضعف واقتباس معـانى الشعراء السابقين فقلما يأتى بشىء من عنده، واجادته انـما تكون فى صوغ ما اقتبسه صياغة محكمة، وكذلك شعره فى الديوان واجود شعره موشحة هل درى ظبى الحمى، وقصيدة سـل فى الدياجى وتنازعنى الآمال، وبعض الموشحات والقصائد الاخرى والمقطعات التى تميزت فيها شخصيته وظهرت عبقريته.

وقد يحول بعض التصحيف الذى دخل شعره عـن استجلاء المعنى الذى يقصده فيضعف كما وقعت الاشارة لذلك فى موضع أو موضعين من هذه الاشعار .

الـزيـادات

3

حبيبى على الـدنيا اذا غبت وحشة

فيا قـمرى قل لى متـى انت طالع

لقـد فنيت روحـى عليك صـبابة

فما آنت يا روحى العـزيزة صانع

سـروری بأن تبقى بخير ونعـمة

وانـى من الدنيـا بذلـك قانـع

فما الـحب آن ظـاعنته لـك باطل

وما الـدمع ان أفنيتـه لـك ضائع

وغيـرك ان أوفى فما انـا نـاظر

اليـه وان نـادى فمـا آنا سـامع

كأنـى موسـى حيـن ألقتـه أمـه

وقد حـرمت يوما عليه المـراضع

أظن حبيبى حال عما عهدته

والا فمـا عذر عـن الوصـل مانع

فقـد راح غضبانا ولـى ما رأيتـه

ثلاثـة ايـام وذا اليـوم رابـع

أرى قصده أن يقطع الوصل بيننا
وقد سل سيف اللحظ والسيف قاطع

واني على هذا الجفاء لصابر
لعل حبيبي بالرضا لى راجع

وأن تتفضل يا رسولى فقل له
حبيبك فى ضيق وحلمك واسع

فوالله ما إبتلت لقلبى علة
ولا نشفت منى عليه المدامع

تذللت حتى رق لى قلب حاسدى
وصار عدوى في الهوى لى شافع (1)

فلا تنكروا منى خضوعا رأيتم
فما أنا فى شىء سوى الحب خاضع

11

موسى ترفق ولا تضعنى
عبدك لا شك بعض مالك (2)

اذا مزايا الجمال عدت
لم يحسب البدر من رجالك

---

1) لا يخفى أن المقام هنا للنصب لا للرفع ،

2) كتب على هذا الشطر بطرة الاصل: اى لا تشك ان عبدك هو من جملة مالك لكونه مشترى من المال الذى لك بلاشك ولا ريب

لانـال منـك الزمان حـظا

ولا الذى نلت من وصالـك (1)

15

مقلـــة عيـنـــي نـظـــرت

حتـــى لقلبـــي اسـرت

وذو دلال اهـــيـــف

نكهـلـــه (2) قـد عطـــرت

فـــي وجـــه مـــن احبـــه

(اذا السمـــاء انفـطـــرت)

وادمـــعـــي مـــن اجـــلـــه

(اذا البـحـــار فـجـــرت)

ومهجتـــي مـــن هـجـــره

(اذا الجحـيـم سـعـــرت)

وخاطـــري فـــي حبـــه

(اذا النجـــوم انكـــدرت)

بـــدر كـــان عـــقـــلـــه

(اذا الجبـــال سـيـــرت)

1) بمجلة الحوليات: الا الذى نلت،
2) بالاصل : نهكته

قـد علـمـت نفسـي بـه
(مـا قدمـت واخـرت)
قلـت لـه متـى اللـقـا
وادمـعـي تـحـدرت
فـقـال لـي مـجـاوبـا
(اذا القـبـور بعـثـرت)
اراد قتلـي عـامـدا (1)
(بـأي ذنـب قتلـت)

19

أما آن للبدر المنير طلوع
فتشرق اوطان لـه وربوع
فيا غـائبـا ما غاب الا بـوجهـه
ولـى ابدا شـوق لـه وولـوع
سأشكر حما زاد فيـه عبادتى (2)
وان كـان فيه ذلـة وخـضـوع
أصلى وعندى للصبابـة رقة
فكـل صلاتى فـى هـواك خشـوع
أأحبابنا هـل ذلك العيش عـائد
كما كـان اذ أنـتم ونـحن جميع

---

(1) بالاصل: عمدا (2) كذا وقد تكون عيادتى وزاد: زار ومع ذلك يبقى المعنى غامضا.

وقلتم ربيــع موعد الوصــل بينــنا
وهــذا ربيــع قد مضــى وربــيع
فقد فنيــت يا هاجــرى رسائلــى
ومل رسول بينـنـا وشفيع
فلا تقــرعوا بالــعتب قلــبى فانه
وحقكم مثل الزجـاج صديع
وما ضاع شعرى فيكم حين قلته (I)
بلى وأبيكم ضاع فهو يضوع
أحب البديع الحسن مــعنى وصورة
وشعــرى فــى ذلك المــبديع بديع

20

وله وقد مر بحانوت حجام فأبصر مليحا يفصد فأنشأ :

انظر الى دمه فى الطاس حين جرى *
نوعا من الراح فى كأس من الذهب
حتــى اذا غيبت فى كمه يــده (2)
كالشمس غابت عن الابصار في الحجب

(I) فيكم ليست فى الاصل ولابد منــها وحين قتله تصحفت فــى الاصــل بحين نلته وضاع يضوع فى عجز البيت بمعنى طاب يطيب.
(2) فى الاصل: يداه فى كمه ونظن ان صوابه ما اثبتناه.
(★) بمجلة الحوليات: أما ترى دمه فى الطشت ... سلافة الراح وتزيد بيتا هو: لو لم تكن من دم المنقود ريقته لما اشتكى خده القانى من اللهب وبعده: تبت يدا عاذلى فوق وجنتة ...
بعد ذلك يأتي بيت: حتى اذا دخلت في كمه يده .. على هذا النحو وعجزه كما عندنا، والبيت الاخير يبتدىء هكذا: ارجع لما قال ...

تبت يـد كتبـت من فـوق وجنته

حمالة الـورد لا حمالـة الـحطب

انظر كما قال فى التنـزيل خالقنا

أخفض جناحك يا موسى من الرهب

33

ألحـظا ظبـى فـوق ثغـر لآل

أهلال تم فوق جيد غزال

اقضيب بـأن فى كثيب رمـال

هب النسيم بغـصنه الميال

فاختال بين ترنح ودلال

رشأ يهيم بحسن منظره الرشا

يروى ويرعى فى المدامع والحشا

قلم الجـمال بـصحن خديـه وشى

أحكم علـى أهل الغرام بمـا تشا

وقد الملاح فأنـت فيهم وال

كلـف الفؤاد بـحب أحـوى أحور

يفتـر مسكـا عن خـتام السكـر

في فيـه يجرى كـوثر مـن جوهر
جمدت لـه في الخال نقـطة عنبر
فأذاب ماء الخد خاء الخال (1)
من لى به لبس الملاحة وارتدى
وحكـى الغـزالة مقـلة ومـقلدا
والورق تعشـق منه غصنا أملـدا
وتمنت الاكواس ان تتزودا
برضابـه بـدلا من الجـريال (2)
ظبى مهاب (3) بين مـشتبك القنا
الحاظـه فيها المنايا والـمنى
ستروه خوفا منهم ان يفتـنا
والله مـا حط النـقاب ولارنـا
الاوتـيم كـل قـلب سـال
لما تطلـع فـى سنـا أشـراقه
والسحـر معقود بعقد نطـاقه
والجور فـى الاحـكام مـن آخلاقه
استـل سيـف اللحظ مـن أحداقه

(1) من معانى الخال الفؤاد والرجل الضعيف وهما أنسب المعانى بالخال هنـــا
(2) الجريال : الخمر
(3) تبع ما يجرى على الالسنة، والصواب مهيب

فعلمت ان اليوم يوم قتال

آه لما حملته فى حبه

من لين معطفه وقسوة قلبه

ألف الصدود فلا سبيل لقربه

أمسى واصبح مغرما صبابه

فانى الحشاشية وهو خلو البال

اسكنته صدرى فتاه وما ارتضى

وقضى بهجرى فارتضيت بما قضى

ووهبت روحى ابتغى منه الرضى

وبذلت نوما جفنه ما غمضا

الا لكى يحظى بطيف خيال

يا شادنا فى العاشقين محكما

احللت من سفك الدماء محرما

فوقت من الحظ جفنك أسهما

وقتلت نفسا فى الهوى فكانما

سلطت الحاظا على الآجال

ما ضر لو رحم الغريق بمزنه

أولو شفى يعقوبه من حزنه

جسمي تساوى فى السقــام بجفنه

سبحان مــن فتــن العــباد بحسنه

وقضــى لجسمي فيه بالاعلال

ارقام الاشعار فى الاوراق وارقامها في الديوان

رقمت اشعار هذه الاوراق بحسب ترتيبها فيها من واحد الى 33 قصد مقابلتها بما فى الديوان، اذ كانت الاشــعار فيه مرقمة ايضا، ومن فوائد ذلك معرفة المحتوى الشعــرى الذى تضمنته كما قلت سابقا، وهذه هى تلك الارقام مــسلسلة من 1 الى 33 ما عدا ارقام الزيادة طبعا، وما يقابلها فى الديوان:

1 ، 59. 2 ، 114. 4 ، 120. 5 : 106. 6 : 126. 7 : 8. 8 : 10. 9 : 60.
10 : 63. 12 : 62. 13 : 34. 14 ; 15. 16 : 9. 17 ، 103. 18 : 30.
21 : 27 22 ، 122. 23 ، 28. 24 ; 104. 25 : 109. 26 : 49. 27 ، 84.
28 115. 29 : 19. 30 : 20. 31 : 45. 32 : 85.

التصحيح وتعدد النسخ

بعد ترقيم أشعار الاوراق أجــرينا مقابلة بينها وبــين نظائرها فى الديوان، فتبين لنا أن بين بعض ألفاظها اختلافا

وفى البعض الاخر تصحيفا، ونحن نثبت ذلك فيما يلى:

الديوان 59 : رأيت ظباء السمك لا تخزن المسكا

الاوراق ١ : رأيت ظباء المسك لا تمنع المسكا

الديوان 114: ويقدح فى الاحشاء نيران اشواقى

الاوراق ٢ : وتقدح نار البرق نيران اشواقى

بعد بيت تحن الى الخيرى 106

فى الاوراق زيادة هذا البيت :

وما أسهر الظلماء الا لعلة

لينشقنى الخيرى من نشره عرفا

الديوان 106: ولا منصفى يدرى خلاف اسمه حرفا

الاوراق 5 : ولا منطقى يدرى خلاف اسمه حرفا

الديوان 106: ولولا حياتى واتقائى محله

الاوراق 5 : ولولا حياتى واتقائى بخله

الديوان 126: فنص لى لحظة الامراض والعللا

الاوراق 6 : فقص لى لحظة الامراض والعللا

الديوان 126: لو كان ينضح من ماء اللمى نصلا

الاوراق 6 : لو كان ينضح من ماء اللمى نهلا

الديوان 126: شوقى اليك ولا كلفت شوقى قد

الاوراق 6 : شوقى اليك ولا حملت شوقى قد

الديوان 60 : سامحــت فى سفك دمى باخــلا بــرشفة من ريقه الـسلسل

الاوراق 9 :سامحت فــى سفك دمــى باخلا برشفة مــن ريقــــه السلســــل (I) .

الديوان 60 : أحسن من عصر الصبا المقبل

الاوراق 9 :أحسن من غصن الصبا المقبل

الديوان 60 : شاكى سلاح القد واللحظ في حرب شيج عــن صبره أعزل

الاوراق 9 : شاكى سلاح القد والنهد والعينين فى حب شيــــج أعــــزل

الديوان 60 : منسلب الحيلة والصبر لا

الاوراق 9 : مستلب الحيلة والصبر لا

لكن سقعلت منه الحيلة .

الديوان 63 : الا هوى رد حقى عند باطلـه

الاوراق 10 : الا هوى رد حقى عبد باطله

(I) جاء فى طرة هذا البيت : مايلى: باخلا منصوب باسقاط الخافض تقديره لباخل سامحت فى سفك دمى، فهل أبخل من هذا «المسامح بفتح الميم الثانية، ولا يخفى مـا فيه من التكلف، وكان يصح هذا التقــدير لو كان الفعل «سمحــت» كما فى الديوان، ولكن الديوان ليس فـيه باخلا بل راضيا فهــو لا يحتاج لهذا التقدير .

الديوان 63 : وحاجتى فيك بين اليأس والامل
الاوراق 10 : وحاجتى منك بين الخوف والخجل

الديوان 34 : وخط بصدغه للحسن واو
الاوراق 13 : أخط بصدغه الحسن واوا

الديوان 9 : ظمئت منك لوعد
الاوراق 14 : ضحيت منك بشمس

الديوان 103 : ولا يحمل حلم الضعفا
الاوراق 17 : ولا يحمد حلم الضعفا

الديوان 103 : ما كنت موصولا فافك عصر وصل سلفا
الاوراق 17 : ما كنت موصولا فأبكى عصر وصل سلفا

الديوان 85 : بقبلة نسكى انه وجهك الحسن
الاوراق 32 : بقبلة نسكى انها وجهك الحسن

ـ تتمة ـ

بعد ان كتبت هذا المقابل بمدة، اطلعت على العدد التاسع عشر من مجلة حوليات الجامعة التونسية الذى صدر أخيرا وهو عدد خاص يحمل عنوان أشعار لابن سهل الاسرائيلى من اعداد الاستاذ محمد قوبعة، أشار فيه الى مخطوطات، ديوان ابن سهل الموجودة فى تونس، وضمنه نص كتاب الممتنع السدهل فى ترجمة وشعر ابن سهل

للراعى النحوى الاندلسى، وقد قارن هذا الكتاب والدواوين الاخرى بمطبوعات ديوان ابن سهل، وخرج بزيادات من شعره على محتوى الدواوين المذكورة.

وكذلك قمنا بمقارنة مع هذا العمل الجيد، لاشعار النبذة التى قدمناها من شعر ابن سهل، فوجدناه يتوافق واياها فى ثلاثة اشعار وهى رقم 11 ورقم 20 ورقم 33، ويبقى من فائت شعره على مختلف الدواوين وهذا الذى احتواه عدد مجلة حوليات الجامعة التونسية التاسع عشر ثلاثة اشعار، امتازت بها هذه النبذة وهى الواقعة تحت رقم 3 ورقم 15 ورقم 19،

أما الخلافات اللفظية فى الاشعار الثلاثة التى يتوافق فيها العملان فقد استدركناها فى التعاليق بعلامة

بقى ان نشير الى خطأ نسبة الابيات الاربعة التى أولها: وقف الهوى بى حيث أنت الابيات، الى ابن سهل فهى من شعر أبى الشيص الخزاعى كما فى ديوان الحماسة وغيره وأن صواب البيت الرابع منها هو :

وأهنتنى فأهنت نفسى صاغرا
ما من يهوى عليك ممن يكرم

والكمال لله.

حارس الكنيسة

سمع حارس الكنيسة العظمى بمدينة جنوة في جوف الليل، حركة غير عادية داخل الكنيسة وكان وهو مستغرق فى النوم قبل أن توقظه هذه الحركة، يحلم بقداس كبير يقام فى الكنيسة، حضره القساوسة والرهبان، والكبير والصغير من سكان جنوة وخاصة أهاليها وعامتهم .

ولما صحا من نومه وتأكد من الحركة التى سمعها، نهض ينظر ماذا فى الكنيسة، وما هو مصدر تلك الحركة، فاذا به يجد فرسا جامحا قد دخل الكنيسة وهو يشتد فى رحابها جيئة وذهوبا، فشده مما رأى، وعلم أنه نسى أن يغلق باب الكنيسة فمال على نفسه باللوم ، ولعن الفرس الذى سبب له هذه الورطة، وقطع عليه الحلم الجميل الذى كان ينعم به فى نومه.

ثم سار الى الفرس واحتال عليه حتى تمكن منه، فقاده الى خارج الكنيسة بعيدا عن ساحتها ، وألهب ظهره بالسياط ، فجرى الى حيث لم يعد يراه ، ورجع إلى الكنيسة فأغلق بابها، ودلف الى مرقده وهو يجر نفسه من التعب .

ولم يكد ضوء النهار ينتشر، وتدب الحياة في المدينة حتى أخذت أجراس الكنيسة تدق، معلنة باقامة حفلات دينية كبرى وصار السكان يتقاطرون على الكنيسة فى ايمان وخشوع، واكتست المدينة حلة زاهية من الفرح والابتهاج، وماج الناس بعضهم فى بعض، يتناجون ويتباشرون، كما يكونون أيام الاعياد والمناسبات القومية السعيدة، ولئن كان فيهم من يتظاهر بالاستخفاف وعدم المبالاة، فيمر مسرعا كأن الامر لا يعنيه فى شيء، فان ذلك لا يؤخذ دليلا على ضعف الايمان ورقة الدين، وان كانت دلالته على الشك والارتياب واضحة لا خفاء بها.

وعلى كل، فقد كان الحادث مفاجأة سارة لسكان جنوة، فمنهم من اعتبره تكريما لمدينتهم وعلامة رضى عن الجنويين المومنين لتميزهم باليقين الصادق والعقيدة الصحيحة، ومنهم من عده تأمينا لجنوة وحماية لها من جميع الطوارىء والمخاوف وهجمات الاعداء، أما رجال الدين فلم يترددوا فى أنه تزكية لهم وشهادة باستقامتهم، ثم هو تقديس لكنيستهم التى أصبحت منذ اليوم، تفوق غيرها من الكنائس لما حصل لها من الشرف العظيم.

وما كان صـــاحبنا الحارس لينبس ببنت شفة . وهــو يرى ويسمـــع ما يجرى وما يقال ، لانـــه مهدد عـلى الاقل بتهمـة الاهمال وعدم القيام بواجبه كحارس للكنيسة العظمى ، فكيف اذا نطق بالحقيقة وبين للناس أنهم فى ضلال يعمهون ، انهـا الهرطقة حينئذ وتهمة الالحاد والكفر البواح .

ولو قدر لاولئك الشاكيــن والمرتابين أن يتحدثوا اليـــه ، وأمكنه أن يفضـــى اليهم بخبيئة نفسه لتغير وجه القضية مـــن أمر خارق للعادة ، الى حادث بسيط يمكن أن يقع فى كل وقت وفى أى مكان لنفـــس السبب الذى وقع به، ولا يستـــوجب الا القليل من الاهتمام ، من القليل من الناس .

ولكن أنـــى لهم أن يهتدوا لسؤال الحارس، أو أن يقـــوموا ببحث فى الـــموضوع والظروف الزمانية والمكانية كلّها كانـــت ضـــدا على كل نزعة مـــن هـــذا القبيـــل ، فليس الا الخضـــوع والاستسلام ان مع الايمان أو مع عدمه، لمن أراد النجاة وعدم التورط فيما لا تحمد عقباه .

وغـــصت الكنيسة بالمومنين مـــن جميع الطبقات ، رجـــالا ونساء وبرز القساوسة والرهبان في زينة بديعة ومعهم الاطفال الصغار يحملون الصلبان والمبـــاخر والشمعدانات الثمينة ممـــا

يضفي على المكان جوا من الرهبة والخشوع، وبدأت التـرانيم الدينية المؤثرة تتخللها أصوات رخيمة جميلة للبنات والصبيان، وأقيمت صلاة الشكر للـرب الاب الذى فى السماوات على مـا اختـص به مدينة جنوة وكنيستهـا من فضل عظـيم ، وألقـى الاسـقف الاكبر خطبة رائعة ، تحدث فيها عن المعجزة التـى حصلت فـى الليلة السابقة حـين زار السيد المسيح كنيستـه بجنوة، ونزل اليهـا من الاعالى ممتطيا فرسا فارها ، فتلقتـه بغاية الشوق واللهفة، وانفرجت له سقوفها وجدرانها حتى حل برحابها ثم عادت فالتأمت بعد صعـوده ، والابواب كلها موصدة لم يستعمل واحدة منها . وهل هو بحاجة الى الابواب والمنافذ ليتصل بأبنائه ويحل بينهم متى شاء وانى شاء ؟ ! .

ثم كشف الاسقـف الغطاء عن صحن رفيع كان بيـن يديـه وبـه بعض روثات طرية وجدت بالكنيسة فجر اليوم نفسـه ، فهى ولاشـك من أثر الفرس الذى تمت به الزيارة الكـريمة المحتفل بها، وأقبل الحاضرون على الصحن يتأملونه ويتمسحون به ويود كـل واحد لو أخذ شيئا منه على سبيل التبرك، مهمـا قل وضؤل، الا الحارس الذى كان يعجب لما يرى وتعتمل فـى نفسه بـواعث الشك والحيرة ، فـفيما يرى القداس العـظيم

الـذى حلم به أول الليل هو نفســه الذى يقام الآن يقظـة لا منامـا، يخطر فى بالـه المناسبة التى يقام بها هذا القـداس وحقيقتـها التى يعلمها هو حق العـلم، ثم يحاول أن يخـطىء نفســه ويقول لعل الامر كما يظنون ، لكنه يذكر أن الفــرس كـان جامحا وأنه كان عريا وأنه ربما عرفه من بين أفـراس أهـل المدينة، وأنه لم يكن يصحبه أحد لا راكبا ولا راجـلا ، وأنه قاده بنفسه الى خارج الكنيسة وضربه حتى عدا وابتعـد عن رؤية بـصره، فكيف يكون ما يسمعه صحيحا وخصوصا عـن انفراج سقف الكنيسة ونزول الفرس من أعلى ، وهو يعلم أنه نسي باب الكنيسة مفتوحا ومنه دخل الفرس، وأنه لما أخرجه عاد فأغلق الباب بيده ، فكيف يقبل أن الفرس صعد الى فـوق ولم يخرج من باب ولا منفذ ؟ ..

وانطوى على نفســه حائرا أشد ما تكون الحيرة، لا يـدرى ما يفعـل ، وصار الى حالة من الوجوم فقد معها كـل نشاطه ، ولم يعد يأنس بأحد، أنه يخاف أن يفرط منه ما يظهر النـاس علـى سريرته، لقد تضعضع ركن الايمان المسيحى فـي قلبه ، وتغيرت نظرته للاشياء فأصبح يشك في كثير من الامور التـى كانت عنده حقائق مسلمة وسيطر عليه الهم والحزن، فكنـت

لا تــراه الا هائما عــلى وجهه شارد الفكر، لا يقــر له قرار ، فبينما هو في رحاب الكنيسة يتلهى ببعض الاعمال، اذا بــه يتسكــع فى طرق المدينة من غير قصد ولا حاجة ، وتعــود أن ينزل الى الميناء، يسرح نظره فى البحر وينشق نسيمه المنعش واستأثرت بانتباهه حركة المراكب البحرية الصادرة والواردة، وخصوصا هذه التى ترد من الضفة الاخرى للبحر، وكانت بيــن جنوة والمغرب خطوط مواصلات بحرية منتظمة فلم يفتأ يلاحظ أحــوال هؤلاء البحارة الغرباء والركاب الذين يقدمون معهــم ويستفسر عن شؤونهم ، ويتتبع مواعد ذهابهم وايابهم، حتــى أنــس بهم وتعرف الى أكثرهم وانعقدت بينــه وبين بعــضهم صــداقة أدت الى أن عــزمه ذات يوم الى بيتــه، فبات عنــده ، ورآه حيــن استيقظ فى الفجر وتوضأ وصلى الصبح فسأله عــن عمله ذاك فأخبره أنه عبادة وصلاة لله عز وجل، مفروضة على الــمسلم خمس مرات فى اليوم وزاد سائــلا عن مضمون هــذه الاقوال التى سمعه يرددها في صلاته وعقيدة المسلم ما هــي ، فبيــن له ضيفه وصديقه بقدر ما يستطيع كل ما سأله عنــه ، وهو يستوعب ما يسمع ولا يعلق بشيء .

ومــرت أيام وأيام وهو على حاله من التهمم والشــرود ولا

احد يعرف ما ينطوى عليه صدره ولا ما يجول فى خاطره حتى صديقه المغربى الاجنبى عن بلاده وقومه، لم يكن يعرف شيئا من دخيلــته ، لانه لم يفض اليه بذلك قط ، الا أنه فى بعــض الايام كاشفه بأنه يريد زيارة المغرب فهل يأخذه معه ؟ ولمــا رحــب الصديق به سأله أن يكــتم الامــر ويخبره بيوم ابحــار المركب من جنوة عائدا الى المغرب وهكذا حين حان الموعد وأقلعت السفينة المغربية من ميناء جنوة كان صاحبنا حــارس الكنيسة مختبأ فى احدى زواياها يحدث نفسه بما أقبل عليــه من تجربة حاسمة فى مستقبل حياته .

وســارت السفينة تمخر عباب اليم متباطئة تارة ومسرعــة أخــرى، بحسب ركود الريح وهبوبها، وكلــما اقتــربت مــن وجهتها وابتعدت عن محل قيامها هاج الشوق بالمسافر الغريب، وتســاءل عما بقي من المسافة ومتى يكون الوصول، وصديقــه المغربــى يطمئنه ويحدثه عن بلاد المغرب وما سيجده، فيهــا من المتعة والراحة الى أن صارت معالم هذه البلاد تلوح له من بعيد، والبحارة يسمون له كل نقطة باسمها ويشرحون له مــا خفي عليه، ثم بدأوا يستعدون للنزول وأخذت السفينة تتلمس مدخلها الى مدينة الرباط، ولم يمر الا قليل من الوقت حتــى

كانت قد أرست بالشاطىء المغربى الجميل .

وكانت الرغبة الاولى للقادم الغريب هى الاتصال بالرئيس الدينـــى للبلد، ولما أفهمه صديقه المغربــي أنه ليس هنـــاك رئيـــس دينـــى فـــي الاســـلام وكـــل ما هنالك علماء دينيـــون وقـــاض يحـــكم بـــشرع الاســـلام، ســـألـــه أن يـــوصلـــه الـــى القاضي ما دام هو صاحب السلطة القانونية .

وصحبـــه صديقه الى محكمة القاضي، وحين مثل بين يديـــه أظهـــر رغبته الملحة فى اعتناق الاســـلام والانسلاخ من ديـــن النصرانية، ورحب به القاضى غاية الترحيب ولقنه الشهادتين وعـــرفه بقواعد الاسلام والعقيدة الصحيحة فى المسيح عنيـــه السلام وسماه عبد الله وكتب له رسما عدليا بذلك .

وكان فرح صديقه وسائر البحارة بدخوله فى دين الاســـلام عظيـــما ، وعجبوا من حكايته التى كانت السبب فى انحرافـــه عن دينه السابق، واحتفلوا به وعرفوا به أصدقاءهم ، وصاروا جميعا يتعهدونه ويقضون له مآربه بحيث لم يشعر بغربـــة ولا احس بفرقة موطن، وقد غمرته سعادة روحية طفحت على جميع جوارحه وملامحه وجعلته يعتقد كأنه ولد من جديد .

وصادف أن يهودية أسلمت فى تلك الايام ، فتزوجها ورزق

منها ولـدا سماه رضوان، لان ما أنـار طـريقها وألـف بيـن قلبيهما هو معرفة الحق والاستبطان الروحى لكلمة الله التـى أوحاها الي رسله الثلاثة موسى وعيسى ومحمد عليهم السـلام فقد كان هذا الولد بعلمه وعمله مرآة تعكس التعاليم الالهيـة الثابتـة فى الكتب السماوية التي أرتيها الرسل المذكـورون وهـو الرجل الصالح الذى عرف فى التاريـخ وبين رجـالات المغرب باسم الشيخ رضوان الجنوى وكان يقول : خرجت مـن بين فرث ودم لبنا خالصا * ،

* لهـذه القصـة واقع تـاريخى لـم نتصرف فيـه الا بما تتطلبه الحبـكة الفنية لصوغه فى صورة عمل أدبـى

بنو مرين

اصلهم وموطنهم

قرأت فى مجلة الدارة الراقية (العدد الاول، السنة الثامنة الصادرة في شوال 1402 هجرية ـ يوليوز 1982م.) مقالا بعنوان (المرينيون فى المغرب الاسلامى والعروبة، في ضوء الدراسات الانتروبولوجية) للدكتور عبد الباقى علي قصة، كتبه بمناسبة زيارته لقلعة المنصورة، كما سماها، فى احدى ضواحى تلمسان مع قسم التاريخ بجامعة قسنطينة بالجزائر وكان ان طلب منه القاء كلمة عن هذه القلعة، ومن أجل الحصول علي معلومات عنها لجأ الى المركز السياحى بتلمسان، فأمده بنشرة جاء فيها أن المرينيين عرب رحل حاصروا تلمسان سبع مرات وأشارت الى الحصار الطويل الذى دام نحو ثمان سنوات من (698 ـ 706) وشيدوا أثناء الحصار مدينة المنصورة المفتخرة بمسجدها وقصرها ومخازنها وحدائقها وحماماتها وديارها .

والى هنا والامر جلى لا اعتراض عليه ، الا فى قوله عرب رحل لكن الكاتب الفاضل مهد لهذا الكلام بكلمة أشار فيها الى ذكر بنى مرين فى «بني مرين» في شعر امرىء القيس وآنشد على ذلك قوله :

ولو فى يوم معركة أصيبوا ... ولكن فى ديار بنى مرينـا

وألم المامة خفيفة بالحرب التى كانت بين الحارث بن عمرو من جدود امـرىء القيس واحد ملوك كندة، والمنذر بن مـاء السماء ملك الحيرة والتـى انتهت بقتل الحارث وولديه فـى ديار بنى مرينا .

وبناء على ذلك فقـد استشكل أن يكون المرينيون عربـا رحلا وهم الذيـن شيـدوا مدينة المنصورة أو قلعتها التـى فاقـت قلعة الحماديين بالاتقـان والزخرفة، ورجح أن يكـون لهؤلاء العرب وجود قبل وصولهم الى المغرب فى مركز حضـارى مهم عرفوا فيه الاستقرار ودرسوا فن المعمار، ومن ثـم لا محل لوصفهم بالعرب الرحل، الى آخر ما قال .

ولجأ الى ابن خلدون للفصل فى الموضوع. ولكنه وجـده ينسـب بنى مريـن الى زناتة مـن قبائل المغـرب، فقـال : «يبدو أن لونا من الاختلاط وقع بين بنى مرين وقبيلة زناتة حتى ظن ابن خلدون أنها بطن من زناتة» .

وبعـد تتبع أقوال أخرى لابن خـلدون فـى هذا المنحـى وحكمه عليها بالغمـوض قال وهكذا انتقل هذا الخلط الـى بقية الـمؤرخين المحدثين حتى الشيخ عبد الرحمن الجيلالـى

فهو يقول فـي التاريخ لبنى مرين: «المرينيون هم فخذ مـن بطون القبيلة العظيمة زناتة كانت مساكنهم ومواطنهم وراء تلمسان غربا على ملوية وجنوبا الى نواحى سجلماسة وبصحراء فكيك الخ ...

وبمقتضى كلام الدكتور يكون الامر قد اشتبه على جميـع مؤرخى المغرب من قبل ابن خلدون، وعمدتهم ابن أبـى زرع صاحـب كتاب القرطـاس، وكذا من بعده وأشهرهم الناصـرى صـاحب كتـاب الاستقصا وهـذا شـىء غيـر مقبـول أوقعـه فـى ذلـك الاعتـماد على بيـت امـرىء القيـس السـابـق الذكر، وهو بيت انشده ابن منظور فى لسان العرب فقال :

«وبنو مرينا الذين ذكرهم امرؤ القيس فقال :

فلو فى يوم معركة أصيبوا ولكن فى ديار بنى مرينـا

هم قوم من أهل الحيرة من العباد، وليس مرينا بكلمة عربية»

وكذلك قال صاحب القاموس فيهم، ومزجه فى التاج عند شرحه فصار هو نفس نص اللسان .

والعـباد بكسر العين قوم من شتى قبائل العـرب اجتمعوا على دين النصرانية بالحيرة فسموا بذلك ،

وبهذا وحـده يظهر أن بنى مرينا لا صلة لهم ببنى مريـن

المغاربـــــة .

فبنوا مرين آخر اسمهم نون وبنو مرينا آخر اسمهم الف . ثم ان كـــونهم متنصرة من شتـــى القبائل يمنع أن يكونوا هـــم بنى مرين المغاربة الذين لم يعرف عنهم قبل ولا بعد انتماء لدين النصرانية .

وكونـــهم بعض العبادين يـــدل على أنهم أقلية ممن تتألـــف منهم جماعة العباد، والمرينيون قبيلة كبيرة من قبائل زناتـــة فأين تجيىء هذه الفئة القليلة منهم بل أين تجيىء جماعة العباد كلهم من أهـــل الحيرة، من بنـــى مرين القبيلة المغربية التـــى رأينا مواطنها تضرب في جهات متباعدة من بلاد المغرب ؟ ،،،

والدكتور على حق فى اعجابه بالقلعة أو مدينة المنصورة وتعجبه من أن يكون بناتها عربا رحـــلا كما وصفوا فى نشـــرة المركز السياحى بتلمسان، ولكن هؤلاء البدو الرحل كانـــوا قد نزحوا الى المغرب من الصحراء قبل بناء المنصورة بنحو ثمانين عـــاما ونشبت بينهم وبين الموحدين ملـــوك المغرب والاندلس حروب طويلة قضوا فيها على الدولة الموحدية وحلـــوا مكانها فى الاستيلاء على شؤون الدولة وتأسيس المملكة المرينية والمغرب يومئذ فى قمة ازدهاره علما وحضارة وعمرانا وكان

السلطان يوسف ابن يعقوب المنصور سابع ملك منهم سعى في توحيد المغرب الكبير كما كان عليه الامر أيام الموحدين فمن ثم قامت الحرب بينه وبين صاحب تلمسان، وكان الحصار الطويل الذى بنيت المنصورة أثناءه .

قال في الاستقصاء بعد أن ذكر زحف السلطان يوسف المريني على تلمسان وتحصن صاحبها وقومه بالجدران وتعويلهم على الحصار:

«ولما رأى السلطان يوسف ذلك أدار سورا عظيما جعله سياجا على تلمسان وما اتصل بها من العمران، وصيرها في وسطه ثم أردف ذلك السور من ورائه بحفير بعيد المهوى وفتح فيه مداخل لحربها ورتب على أبواب تلك المداخل مسالح تحرسه، وأوعد بالعقاب من يختلف الى تلمسان برفق أو يتسلل اليها بقوت، وأخذ بمخنقها من بين يديها ومن خلفها حتى لم يخلص اليها الطير لا بل الطيف، واستمر مقيما عليها كذلك مئة شهر، ولما دخلت سنة اثنتين وسبعمائة اختط الى جانب ذلك السور بمكان فسطاطه وقبابه، قصرا لسكناه، واتخذ به مسجدا لصلاته وأدار عليهما سورا يحرزهما .

ثم أمر الناس بالبناء حول ذلك فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الانيقة، واتخذوا البساتين وأجروا المياه .

وأمر السلطان باتخاذ الحمامات والفنادق والمرستان وابتنى مسجدا جامعا اقامه على الصهريج الكبير وشيد له منارا رفيعا وجعل على رأسه تفافيح من ذهب صير عليها سبعمائة دينارا، ثم آدار سورا على ذلك كله، فصارت مدينة عظيمة استبحر عمرانها، ونفقت أسواقها، ورحل اليها التجار بالبضائع من جميع الآفاق، وسماها المنصورة فكانت من أعظم أمصار المغرب وأحفلها الى أن خربها آل يغمراسن عند مهلك السلطان يوسف وارتحال جيوشه عنها» (1) .

ونشير الى أصل بنى مرين، فهم فخذ من زناتة كما سبق القول، وزناتة قبيلة عظيمة من قبائل المغرب، يدخل تحتها أقوام وفرق عديدة من البطون والافخاذ، وهم ينسبون الى العرب ويقولون إنهم أبناء بر بن قيس عيلان، فهم من مضر ولهم فى ذلك أشعار وحكايات عن هجرة أوائلهم الى المغرب واختلاطهم بأهله وفى ذلك يقول شاعرهم عبد العزيز الملزوزى من أرجوزته المسماة نظم السلوك فى ذكر الانبياء والخلفاء والملوك :

1) الاستقصا ج 2 ص 39

فجاورت زناتة البرابرا فصيروا كلامهم كما ترى
ما بدل الدهر سوى أقوالهم ولم يبدل منتهى أحوالهم
بل فعلهم أربى على فعل العرب فى الجود والايثار ثم فى الادب

هذا قول نسابتهم، ولكن النسابة العرب ينكرون ذلك، ومنهم ابن حزم وغيره، والله أعلم .

ولمزيد العلم عن بنى مرين وأصلهم ينبغي الرجوع الى كتاب القرطاس السابق الذكر وكتاب الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية وهو لمؤلف مجهول نرجح أنه ابن أبى زرع صاحب القرطاس والى كتاب روضة النسرين فى تاريخ دولة بنى مرين والى كتاب الاستقصاء في تاريخ المغرب الاقصى وتاريخ ابن خلدون وسائر الكتب المغربية المختصة وهى كثيرة ،

الالفاظ والاساليب المستحدثة

تحيى الامم بلغاتها كما تحيى اللغات بأممها، فاذا رأيت أمة خاملة الذكر ضعيفة الحول، فانك لابد أن تجد لغتها قاصرة متخلفة، تعكس الاوضاع القائمة فيها من مجتمع بدائى وحياة ساذجة وجيل من الناس محدود النشاط والتفكير وبالعكس اذا كانت الامة حية متطلعة الى افاق النمو والتطور كانت لغتها مستجيبة لحيويتها متفاعلة مع عوامل التغيير الذى تتعرض له، فلا تلبث ان تصير من اللغات ذات الشأن، اسوة بالذين يتكلمون بها.

ولكم رأينا من أمة لم تكن شيئا مذكورا هى ولغتها، فما ان مسها تيار التطور والتغيير، حتى برزت للوجود تأخذ وتعطى وتتبادل أسباب التقدم والرقى مع غيرها من الامم النامية، بوسيلة اللغة التى دبت فيها نسمة الحياة من أبنائها الناهضين، انما الغريب ان تموت اللغة بموت اهلها بعد الازدهار والانتشار حتى يصبح فك رموزها من الفتوحات العلمية كما وقع فى لغة قدماء المصريين اعنى الهيروغليفية مما يؤكدان الصلة بين حياة الامة واللغة شىء واقع لا مرية

فيـه .

ويستثنى من ذلك بعض اللغات التى تعد أما لغيرها من اللغات المتفرعة عنها، فهى وان ماتت بموت المتكلمين بها، بقيت محفوظة فى فروعها المنتشـرة بين أمم حية لا تـفتأ تستمد منها وتوسع لغاتها بالرجوع اليها اقتباسـا وتوليدا واشتقاقـا وتنظيـرا، وكان هذا مـن حظ اللغتين اليونانيـة واللاتنية اللتين تعتمدهما أكثر اللغات الاروبيـة المستعملة اليوم، لاسيما المنبثقة اصلا من اللاتنية !

والاستثناء الاعـظم من هذا هو اللغة العربية لغة الوحـى والتنزيل التى استهدفت لكثير من عوامل الركـود والتخلف بعدما كانت عليه من النمو والازدهـار حتى طبقت ارجـاء العالم، وأصبحت لغة العلم والحضارة فى بلاد الشرق والغرب طوال العصور الوسطى، واستوعبـت ثقافة الهند والفـرس وسائـر الشعـوب القديمة لكنها بعد ذهـاب دولتها بسيطـرة الاعاجم على العرب وغزو الفرنجة لارضهم، ثم استيـلاء الغرب على مقدراتهم المادية والادبية، واضمحـلال حضارتهم حتى أصبحوا عالة على الاجنبى فى كل شىء، فى هذه الحالة، لم يكن هناك مناص من دخول العربية فى عداد اللغات الميتة

لولا القرآن العظيم الذى حفظها وحفظ العرب أنفسهم من المصير الذى لقيه غيرهم من الامم البائدة .

فهنا كانت اللغة هى صمام الامن وضامن الوجود لامة الرسالة الخالدة التى يقول كتابها (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) ومن اللطائف فى هذا الصدد ما روى عن القاضى اسمعيل انه قيل له لم جاز التبديل على أهل التوراة ولم يجز على أهل القرآن فقال لان الله تعالى قال فى أهل التوراة (بما استحفظوا من كتاب الله) فوكل الحفظ اليهم، وقال فى القرآن (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) فتكفل هو بحفظه، فلم يجز التبديل على أهله، ذكره عياض فى المدارك. وهكذا بقيت العربية وبقي العرب ، فصح ما قلناه في أول هذا الحديث ان الامم تحيى بلغاتها كما تحيى اللغات بأممها .

ولا أشير الى فشل المحاولات التي أريد بها الايقاع باللغة العربية والحاقها باللغات الميتة، كاحلال العاميات الناشئة في مختلف البلاد العربية محل الفصحى، وجعلها كاللغات المنبثقة من اللغة اللاتنية للقضاء عليها وتمزيق شمل الامة العربية، وكاقتراح كتابتها بالحرف الافرنجى كما حصل

فى اللغة التركية وغير ها من اللغات التى كـانت الى أوائل هذا القرن تكتب بالخط العربى، لفصلها عـن ماضيهـا المجيد وتراثها العتيـد، وغير ذلك مما يـوحى به خصومها وخـصوم حضارتها، ويتلقفه مع الاسف بعض العققة من أبنائها عن علم مدخـول أو جهل مستحكم، ويروجون لــه من حين لاخر بيـن الطلبة والشباب لعله يجد منهم قبولا ورضى. فهـذا نوع من الحروب التى تشن على أمتنا العربية فى شتى الميادين وكل الاوقات، فتشحد عزيمتها وتـقوى همتها للمزيد من النضـال، واحراز الخصل فى كل مجال .

غير أن ما لابد من ذكره والتنويه به، هـو هذه الجهود المتضافـرة والاعمال المتـواترة مـن أبناء العربية الابـرار كتابا وشعراء، وأساتذة وصحفيين ومجمعيين، وفى طليعتهـم أعضاء مجمعنا القاهرى الموقر، لبعث لغتنا الضادية واحلالهـا محل الصدارة بين اللغات العالمية الكبرى كما كانت وستبقى كذلك بـإذن الله مع تفوقها عليها بما تختص به من الزيـادة فى عالم المعرفة الايمانية وا قوامة الـروحية على التـراث الانسانى، لا ينافسها فى ذلك أى لغة في العالم .

ويتمثل البعث اللغوى الذى تحرص عليه الجهات والفآت

من الناس الذين ألمعنا اليهم فى آمرين اثنـين اولهما الحفاظ على سلامة اللغة من الشوائب التى تكسف نصاعتها؛ كالالفاظ العامية والتراكيب المنافية للفصاحة بمخالفتها لقواعد النحـو والتصريف والاقتباس من اللغات الاجنبية بغير مرعاة لطـرق التعريب والترجمة الصحيحة.

وثانيهما سـد فراغاتها المجمعية والتعبيرية بمـا يغنيها ويثريـها من الالفـاظ والاساليب التـى هى في حاجة اليهـا كالمصطلحات العلمية والتقنية و المفردات والاسماء التى تعين الادوات والاجهزة الحضارية الحديثة فان هذه الاشياء فى تزايد مستمر ولابد لمسايـرة ركب التقدم من أيجاد الوسائل التـى تبلغنا اليه واولها الرصيد المغوى الذى نودعه اياه

واللغات لا تنمو وتتسع بغير الاخذ والعطاء وقد أعطينا كثيرا من لغتنا اللغـات الاخرى ، ففى اللغة الاسبانية ما يزيد عـلى 15 فى المئة من المفردات العربية في مختلف مجالات الحياة مـن اجتماع واقتصاد وعلوم طبيعية وفلكية وزراعية وغيرها وامـا فى الادب والشعر والقصص والامثال فان عطاءنا في ذلك كان هو أساس الابداع والخلق عند الاسبان ومن تأثر بهم فى هذه الفنون وما تزال اسماء بعض النجوم وبعض الآلات الهندسية

وبعض المناطق الجغرافية بل بعض العلوم بذاتها في اللغات الاروبية الكبرى كعلم الجبر باللغة العربية. فاذا عدنا لاخذ ما نحن في حاجة اليه من ألفاظ وأساليب عن اللغات الاخرى، فهي قد سبقت الى الاخذ عنا، وكذلك سبق أسلافنا فأخذوا عن اللغات القديمة ما نعبر عنه بالمعرب من الالفاظ وصقلوه فصار من صميم العربية ودخل حتى في لغة القرآن الكريم وما نقص ذلك من قدر اللغة العربية ولا أثر في أصالتها، لان كيانها محفوظ بقواعدها النحوية والصرفية والبلاغية، ولا تدخل كلمة الى معجمها حتى تصهر في بوتقة هذه القواعد وتصوغها على قالبها وقياسها المعروف والمقبول .

ومن هنا يظهر أن الالفاظ والاساليب المستحدثة ليست كلمات وجملا تقمش من هنا وهناك، ويوتى بها على غير هدى لتضخيم المعجم العربي وجعل حجمه أكبر مما هو، فأن الامر أعظم من ذلك، ان الكم والكيف فيه مقترنان، والحداثة والعراقة له ملازمان، وما نستحدثه منه غالبا ما يكون له أصيل في اللغة العربية وطرق تعبيرها. نعتمد فيه الاشتقاق والتوليد والنحت والتركيب والمجاز والاستعارة والكناية وغير ذلك مما يؤدي المعنى المراد، ويكون وضعا جديدا يضاهي

عمل الواضع الاول، وعمل الواضع كما نعلم هو جعل اللفظ دليلا على المعنى، ومن ثم يكون المستحدث على هذه الطريقة عربيا خالصا لا غبار عليه، أما ان كان مما يقتبس من لغة أخرى فلابد من خضوعه لعملية التعريب التى اشرنا اليها آنفا، وهى عملية معروفة ومتبعة فى سائر اللغات، وكلنا نعرف ما عمله الاجانب فى اسم نبينا محمد (ص) ليميزوه عن غيره من الاسماء الموافقة له، فالمقتبس على هذا النحو هو أيضا من صحاح العربية الذى يثبت قاعدة تعامل اللغات بعضها مع بعض، وقد أسرف بعض اللغويين المتشددين فأنكر المعرب من الاساس وزعم أنه عربى أصيل!

وعلى كل فقد أضاف القرآن الى متن اللغة معجما كاملا لاسيما فى المعانى الشرعية والقانونية، ولم يزد على أن خصص العام وقيد المطلق وبين المجمل، فأوجد لكلمات الصلاة والزكاة والوضوء والغسل والذكاة والاضحية والجهاد والرباط والقراض والسلم والاجارة والجعل وغيرها من مآت الالفاظ، معانى ودلالات لم تكن لها من قبل، وهى هى نفس الالفاظ العربية التى كانت موجودة بالفعل أو بالقوة ولا علاقة لها بما أصبحت تفيد، من بعد، تماما كما فعلنا

نحن فى كلمة الجريدة والسيارة والباخرة والهاتف والثلاجة والكلية والجامعة والدستور والقانون والاذاعة والادارة الى ما لا يحصى من الالفاظ المستحدثة ذات الدلالة الجديدة وان كانت هى قديمة .

أما اذا نظرنا الاساليب القرآنية التى صاغ بها الكتاب العزيز دعوة الاسلام وخاطب العرب بما أهلهم له من ابلاغ رسالته الى البشرية جمعاء، فاننا نجد أمرا عجبا لم تكن هناك كلمة للتعبير عنه قبل وبعد أنسب من الاعجاز فأنه ليس بالشعر ولا بالنثر ولا بالخطابة ولا بالسجع ولا غير ذلك مما تعرفه العرب، من فنون القول فكان أن ألقوا باليد وأقروا بالعجز وهم أساطين البلاغة وفرسان البيان حتى كان منهم من سجد لسماع بعض آيات منه، وتسمية جمله وفقره بالآيات هى نفسها من باب الاكبار والانبهار بأسلوبه الرائع، والموضوع بحاله كما يقول علماؤنا فى هذا المقام، فان الكلمات والمفردات هى هى ما عرفوا وعلموا، ولكن الصياغة شىء آخر، غير ما عهدوا واعتادوه، فلقد روى عن الاصمعى انه قال سمعت بنتا عربية خماسية أو سداسية تنشد :

أستغفر الله لذنبي كله　　قتلت انسانا بغير حله
مثل غزال ناعم في دله　　وانتصف الليل ولم أصله

فقلت لها قاتلك الله ما أفصحك! فقالت ويحك أتعد هذا فصاحة مع قوله تعالى: «وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين» فجمع فى اية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين

وهذا بعد انتشار الاسلام والعلم والمعرفة وتفتح الاذهان وارتفاع المستوى الثقافى لدى عامة العرب بما يفوق عدة درجات ما كان عليه الخاصة منهم، وحكى عن بعض البلغاء أنه كان يتمشدق بمعارضة القرآن حتى اذا قرأ قوله تعالى فى قصة الطوفان من سورة هود. (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء اقلعى، وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودى) سقط فى يده وعلم أن ما يحاوله انما هو عبث وكيد، وعبارة سقط فى يده نفسها هى مما أتى به القرآن ولم تكن العرب تعرفه، وذلك فى قوله تعالى من سورة الاعراف: (ولما سقط فى أيديهم) وقد عدها علماء البلاغة من روائع كلم القرآن! .

وهذا الذى قلناه فى أسلوب القرآن، وقاله العلماء قبلنا قد عبر عنه رئيس مجمعنا السابق الدكتور طه حسين رحمه

الله بكلام بين واضح مركز يطيب لنا أن نسوقه هنا وهو قوله، «ان القرآن ليس نثرا، وليس شعرا، ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم، ليس شعرا وهذا واضح فهو لم يتقيد بقيود الشعر، وليس نثرا لانه مقيد بقيود مخصوصة لا توجد في غيره، وهذه القيود بعضها يتصل بأواخر الايات وبعضها بتلك النغمة الموسقية الخاصة، كان وحيدا فى بابه، لم يكن بعده مثله ولم يحاول أحد أن يأتى بمثله، وتحدى الناس أن يحاكوه،وأنذرهم أن يجدوا الى ذلك سبيلا »

ورفد الحديث النبوى اللغة العربية بمثل ما رفدها به القرآن أو بقريب منه، لفظا وأسلوبا، ولا غرو فهو (ص) أفصح العرب، وأوتى جوامع الكلم. ولم يفتأ علماء البلاغة يضعون كلامه فى المرتبة الثانية بعد القرآن، وقد تكلم بكلمات لم يسبق للعرب أن نطقت بها كتعبيره عن النساء بالقوارير فى قوله لانجشة الحادى: «يا أنجشة رفقا بالقوارير» وكانت هذه الكلمة أبلغ ما سمع فى وصف النساء وطبيعتهن الرقيقة وسرعة تأثرهن، وهى تشبه ما يقال الان فى النساء من وصفهن بالجنس اللطيف، ومن بليغ كلامه قوله فى غزوة حنين: «الان حمى الوطيس» قال فى النهاية: الوطيس التنور ،

وهو كناية عن شدة الامر واضطرام الحرب، ويقال أن هذه الكلمة أول من قالها النبى (ص) لما اشتد البأس يومئذ ولم تسمع قبله، وهى من أحسن الاستعارات ونستطيع أن نقول باطمئنان أن الروح التى نفخها القرآن والحديث فى اللغة العربية، جعلتها أعظم اللغات السامية أو أمها كما يقول غير واحد من العلماء، وضمنت لها البقاء على الدوام، وصارت بعد ذلك لا تزداد الا غنى وثراء، لاسيما وقد سار الصحابة على نهج الرسول فى اعلاء شأن العربية والتمكين لها فى أقطار الارض بحيث أصبحت اللغات الكبرى فى ذلك العهد تبعا لها .

ووضع علي بن أبى طالب (ض) قواعد لضبطها وحفظها من التغيير هي ما سمى بعلم النحو، وهكذا توبعت المسيرة فى العصور الاولى حين نقلت العلوم والفنون وترجمت كتب الاوائل فى عهد الامويين والعباسيين فاحتضنتها العربية ولم تضق بشىء منها، بل زادت عليها واتسعت لما لم تتسع له لغة قبلها، اذ صارت مستودعا للمعارف البشرية تقتبس منها الامم والشعوب وتحتذى حذوها فى التجديد والابداع .

ولما أصابها ما أصابها من الفتور، بسبب فتورنا نحن فى الحقب المتأخرة، اعتبارا بقاعدة اللغات بأممها، لم تفتأ أن

انبعثت من جديد بانبعاثنا، وتأثرنا لخطى سلفنا فى تنميتها وحقنها بدم جديد من العمل الذى تقوم به النخبة من أهل العلم فى هذا المجمع والمجامع العربية الاخرى، وسبق أن قام به جيل النهضة قبل تأسيس هذه المجامع، وهو ما يستحدث من ألفاظ وأساليب بالطرق المتبعة فى ذلك من أول يوم آحس العرب فيه بحاجة لغتهم الى التطور والتنمية ونتج عن ذلك ان صارت العربية أداة طيعة للتعبير عن كل ما يختلج فى النفس من أدق المشاعر وأعمق الاحاسيس، وتصوير كل ما تقع عليه العين من مختلف المرئيات ومتنوع المشاهد، وأصبحت تتوفر على عشرات الآلاف من المصطلحات العلمية والفنية والحضارية التى وضعت حديثا ولم يكن لها وجود قبل زمن قليل، ونبغ فيها الكتاب والشعراء الذين يضاهون كبار كتابنا وشعرائنا فى العصر العباسى، الاول ثم هي ما تزال تطوى المراحل وتبغي فوق ذلك مظهرا .

وإذا كان هناك ما يلاحظ على عملنا اللغوى، فهو بطؤه الذى يجعل المسيرة تتعثر، أحيانا من عدم ايمان البعض بطاقة العربية وقدرتها على استيعاب المستجدات من العلوم والفنون والتقنيات، ومن ثم يعارض هذا البعض فى تدريس

المواد العلمية بالعربية ويتحمل مسؤولية تأخر الركب العربى عن قافلة التقدم التى لا تنتظر أحدا، وأحيانا من تعارض الاتجاهين، المحافظ والمجدد، فبينما يتزمت الاول حتى يمنع ما لا يجوز أن يمنع، يندفع الثانى فيقع فى محظورات لا تقبل بحال، وتمتد المعركة ولا يسفر العمل عن نتيجة الى أن ياتى التمحيص، وربما لا يأتى .

ومثالا على ذلك لفظ الفنان الذى أطلقه العرب الاولون على حمار الوحش لتفننه فى العدو، وكان بعض المعاصرين استعمله فى وصف رجل الفن فلم يرتضه الملتزمون بالنص اللغوى،وكان كتاب مثل مصطفى صادق الرافعي يضطرون الى استعماله فيضعونه بين قوسين للتعبير عن تحفظهم بأزائة مع أن له أكثر من وجه لتخريجه عربيا. وقد أشرنا الى ذلك فى بحثنا الذى ألقيناه فى هذا المجمع منذ سنوات بعنوان السليقة عند العرب المحدثين .

ومثله الجدال الذى يثور من حين لآخر فى جمع معجم على معاجم ومشهور على مشاهير زعما بأن قياس الاول معجمات والثانى مشهورون ، وليس هذان بأقيس من معاجم ومشاهير ، ومن التطاول ان يغير مصحح الطبع اسم كتابى مشاهير رجال

المغرب في مقدمته الى مشهوري رجال المغرب وحمدت الله على أنه لم يستطع أن يغيره فى عنوان الكتاب الخارجي المرسوم بمعرفة خطاط. ويلجأ المجيزون للجمع المذكور الى تتبع الكلمات التى جاءت على وزنه للاحتجاج بها، مع أن من المقرر نحويا أن مفاعل هو من باب فعالل الذى قال فيه ابن مالك :

وبفعالل وشبهه انطقا   في جمع ما فوق الثلاثة ارتقى

من غير ما مضى ....

وقد ذكروا ان شبه فعالل مفاعل وفياعل وفعاول وغيرها مما هو مثله عددا أو هيئة، وان خالفه زنة، كمفاعيل وفعاعيل ونحوها، فهذه كلها جموع لما زاد على الثلاثة من الرباعى فما فوقه، أصليا أو مزيدا، باستثناء باب كبرى وسكرى ورام وكاهل ونحوها، وهو ما أشار له ابن مالك بقوله: من غير ما مضى، فان له جموعا أخرى ذكرها. ويدخل فيما يعنينا هنا أعنى مفاعل معجم ومصحف، مما أوله مضموم ومسجد وموطن مما أوله مفتوح ومعول ومضرب مما أوله مكسور، فيقال قياسا معاجم ومصاحف ومساجد ومواطن ومعاول

ومضارب، ويقال فى مشهور ومرسوم ومفهوم مشاهير ومراسيم ومفاهيم قياسا أيضا .

والامثلة على اجتهاد بعض اللغويين فى حال وجود النص كثيرة، ويكون الخطب سهلا اذا وافق الاجتهاد النص، ولكن المشكلة هى أن يخالفه، وأن يتعصب له صاحبه فتصير عويصة، وكل ذلك مما يعوق مسيرة العمل اللغوى ويبطىء به الى حد بعيد .

وأما قبل وبعد فان حرصنا على أن تسير حملة التنمية اللغوية فى الطريق السوى، ولا تخالف عنه يمينا أو يسارا ليس فقط لتجنب المعوقات وسرعة الوصول الى الغرض المنشود، بل ولربط الحاضر بالماضى، والمحافظة على هذه الميزة التى تجعل اللغة العربية حية فى أذهاننا كما كانت فى أذهان آبائنا وأجدادنا، فلا نبتعد عن مظلة القرآن الذى هو هو الحارس الحقيقى لها ولنا .

رأي بشأن توحيد اسماء الشهور العجمية

تلقى معهد الدراسات والابحاث للتعريب بالرباط رسالة من المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس بعمان تشير الى القرار الذى اتخذته الامانة العامة للمنظمة بدراسات امكانية توحيد أسماء الشهور الميلادية بين أقطار الوطن العربى وقد تفضل المعهد المذكور فأحال علي الرسالة المشار اليها لابداء رأيي فى هذه المسألة .

وانى آشكر المعهد على حسن ظنه بى وأحيى المنظمة على هذه البادرة الطيبة التى هى خطوة ايجابية فى سبيل توحيد الفكر العربى ومفاهيمه .

وأبادر فأقول لو انا عبرنا بالشهور العجمية لكان أولى لانها ليست كلها ميلادية على الاقل فى أصل استعمالها ولا يعبر عنها فلكيو العرب وعلماء التوقيت الا بالشهور العجمية وعلى كل حال فالمقصود اسماء الشهور القبطية والسريانية والرومية وهذه تسمى الآن بالافرنجية وهى مستعملة فى المغرب العربى وحدها وفى بقية لبلاد العربية بالاضافة الى القبطية والسريانية .

ففى مصر تستعمل الاسماء الثلاثة أى القبطية والسريانية والرومية، وفى سوريا ولبنان والعراق تستعمل السريانية والرومية وفى بقية الاقطار العربية نرى الميل الى استعمال الرومية أكثر .

ومن ذلك يعلم ان انتشار الاسماء الرومية أكثر من غيرها فهى مستعملة فى الاقطار العربية كلها ان لم يكن أساسا فبالطبع كان يكتب مثلا: آدار (مارس) وذلك لهذا الانتشار الذى اكتسبته الاسماء الرومية بسبب الاتصال بالثقافة الاوربية والحضارة الغربية والاقتباس منهما والنقل عنهما فضلا عن عدم معرفة الاسماء الاخرى فى كثير من الشعوب العربية وخاصة فى المغرب العربى .

ونرجع الى التاريخ وكتب الفلك والتوقيت والطب والفلاحة عند العرب فنجد الامر فى الماضى كما هو فى الحال مبنيا على الازدواجية فى ذكر أسماء الشهور السريانية والرومية معًا وذلك فى مقابلة أسماء الشهور العربية أعنى القمرية، وفى رصد الظواهر الجوية وحلول الفصول الاربعة وموافقة الامزجة والطبائع المختلفة للانسان والنبات حال العلاج والفراسة وغير ذلك .

لكن هذا فى كتب المشارقة، أمـا فى كتب المغاربة التى بأيدينا من أهل الاندلس والمغرب الكبير فأننا نجد الاعتمـاد عـلى الاسمـاء الـرومية، ولينظر كتاب الفلاحة لابـن بصـال وفلاحة ابى الخير وفلاحة ابن العوام الاندلسيين ونظم أبى مقرع المغربى في التوقيت وروضة الازهار للجادرى والمقـنع للمرغيثي وكتب ابن البناء العددى الذى كان من أعظم رياضى القرن الثامن فان الامر عند هؤلاء كلهم لا يعدو ما ذكرنا .

ويحسن هنا أن ننقل عبارة لابن البناء فى كتابه منهـاج الطالـب لتعديل الكـواكب نشر وترجمة خـوان برنيط الـى الاسبانية طبع تطوان 1942 ومن اسم هذا الكتاب ـ المنهـاج ـ أخـذ الاجانب كلمة almanac وهذه العبارة هـى التي تقـول «وأشهـر تـاريخ العجم عنـدنا بعد تـاريخ الهجرة التـاريخ الـرومـى»

وحيث الأمر كذلك فان أمر توحيد أسماء الشهور العجمية أو الميلادية بتعبير اخر في الاقطار العربية لا يكون الا باختيار أحد هذه الاسماء ولا يكون بترضية هذه الجهة أو تلك والا لاخذنا أربعة أشهر من القبطية وأربعة من السريانية وأربعة من الرومية وهذا غير معقول أو لسميناها بما يشار به اليها

من الشهر الاول والشهر الثانى الخ ولكن ما لنا ولهذه الحساسيات .

ان الاختيار انما يكون بالمرجحات التى تغلب كفة على كفة .... ولعل الجانب العام الذى أشرنا اليه آنفا، كاف فى ترجيح الاسماء الرومية اضافة الى أنها المستعملة والمعروفة أكثر من غيرها فى جميع الاقطار العربية حتى أنها تؤخذ تفسيرا لغيرها يزاد على ذلك أنها الاسماء الوحيدة للشهور الميلادية فى عالم الغرب والموافقة فى هذا الباب مع العالم المعنى بالتاريخ الميلادى أكثر منا مما يرغب فيه وقد كان النبى (ص) يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم ينه عنه .

بقيت قضية تعريب هذه الاسماء فقد وقع فيها اضطراب كبير فى العصر الحديث وذلك من قصور التراجمة وعدم اطلاعهم على تعريبها السابق الذى قام به العرب الاولون وصقلوا هذه الاسماء وصاغوها على نهجهم الاصيل فقالوا فيها : يناير ـ يبراير ـ مارس ـ آبريل ـ ماى ـ يونيو ـ يونيه ـ غشت ـ شتنبر ـ أكتوبر ـ نونبر ـ دجنبر .

ويقولون فى ماى ـ مايو ـ ومايه ـ وفى يونيو ـ يونيه ـ وفى يوليو ـ يوليه ـ ويوليوز فما نسمعه أو نقراه اليوم من

من جانفي وفبراير أو ففري وجوان وجويي وأوت أو أكوسطوس وسبتمبر وديسمبر كله يجب أن يلغى لان صيغة تتبدل أيضا من بلد الى بلد فتنتفي فكرة التوحيد ولان من المقرر مجمعيا أن ما عربته العرب سابقا لا يعاد تعريبه وانما يستعمل بالصيغة التى نطقوه بها .

خلاصة

الشهور غير العربية تسمى الشهور العجمية .

وهى ثلاثة السريانية والقبطية والرومية وهذه الاخيرة تسمى اليوم بالافرنجية والميلادية

أسماء الشهور السريانية :

تشرين الاول ـ تشرين الثانى ـ كانون الاول ـ كانون الثانى شباط ـ آذار ـ نيسان ـ أيار ـ حزيران ـ تموز ـ آب ـ أيلول .

أسماء الشهور القبطية : توت ـ بابه ـ هتور ـ كيهك ـ طوبه ـ أمشير ـ برمهات ـ برمودة ـ بشنس ـ بؤنة ـ آيب ـ مسرى .

أسماء الشهور الرومية وهى الافرنجية والميلادية : ينايرـ يبراير ـ مارس ـ آبريل ـ مايو ـ يونيه ـ يوليه ـ غشت ـ شتمبر ـ أكتوبر ـ نونبر ـ دجنبر .

هذا وينبغى الا يغيب عن الذهن أن ابتداء السنوات السريانية والقبطية والرومية مختلف فأول شهر فى السنة السريانية هو كانون الثانى وفى السنة القبطية هو أمشير وفى الرومية هو يناير .

واذا شئنا المزيد من التدقيق فى التعريب فلنقل فى تشرين الثانى الاخير وكذا فى كانون الثانى الاخير لان الثانى انما تقال عندما يكون هناك ثالث وكذا القول فى ربيع الثانى وجمادى الثانية من أسماء الشهور العربية يقال فيها ربيع الاخر وجمادى الاخرة .

هذا وقد تلقيت رسالة شكر وتنويه من المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس بعمان على يد معهد الدراسات والابحاث بالرباط، مما يدل على الموافقة المبدئية على هذا الرأى والله الموفق .

الازهر المعجزة - الازهر الجامعة

الازهر الرباط

بمناسبة عيده الالفي

الازهر معلم من معالم الدنيا فى الهداية والارشاد الى الحق والى الطريق المستقيم، ومنار من منارات العلم والعرفان فى الماضي والحاضر، ولاسيما فى العالم الاسلامي، وحصن من حصون الدفاع عن الامة والذود عن الحمى لايطال.

بنى أساسا للدعوة الى التشيع والرفض ومجابهة السنة والجماعة فأبى أن يكون الا مصداقا لما يوحى به اسمه الشريف من الاخلاص لحقيقة الدين وروح الرسالة المحمدية، وهل ينسب الى الزهراء رضي الله عنها الا ما كان من صميم الحنيفية السمحة، وصريح ما أتى به والدها المصطفى عليه الصلاة والسلام؟ فكانت تلك هى المعجزة التى لا تكذيب فيها ولا تشكيك :

والكرامات منهم معجزات   حازها من نوالك الاولياء

نعم فمن الثابت تاريخيا أنه ما فتح جوهر الصقلى مولى الفاطميين مصر، وخطط لعاصمتهم القاهرة ، ألا وهو يريد

جعلها منطلقا للدعوة الى المذهب الشيعي و بسط نفوذه على مصر والبلاد المجاورة لها، فبنى الجامع الازهر لاقامة شعائر هذا المذهب التى لم ترحب بها الجوامع الاخرى كجامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون، وما استقرت أقدام الفاطميين بمصر، حتى جعلوا من الازهر مركزا لبث مذهبهم ونشر تعاليمه بين الناس و نصبوا فيه الدعاة الكبار من رجال الحكم المتعصبين لمبادئهم ودولتهم كالقاضى النعمان والوزير يعقوب بن كلس، واصبح هو والجامع الذى بناه الحاكم بعد ذلك للغرض نفسه، ينافسان جامعى عمرو وابن طولون الذين لم يسلسا قيادهما للدولة الجديدة الا فيما أرغما عليه من بعض الشعارات التى يلتزم بها الشيعة فى الآذان والاقامة والقراءة فى الصلاة والدعاء، وان كان كثيرا ما يقع الاخلال بذلك عند تراخى المراقبة.

وتسمية الجامع من أول يوم بهذا الاسم المشتق من اسم السيدة فاطمة الزهراء التى ينتسب اليها الفاطميون، تشعر بالغرض الذى بنى له، فهو وان لم يكتسب صفة الجامعة أو المعهد العلمى الا بعد بنائه بزمن طويل كما يقول المؤرخون، كان معدا لهذه المهمة، الا أن الانصراف الى تثبيت أركان

الدولة ونشر سلطانها فى البلاد، آخر ذلك الى أن استتب الامر وتمهدت السلطة للفاتحين .

وكان الفاطميون قد استفادوا من تجربتهم فى المغرب، عدم امكان فرض مذهبهم على السكان بالقوة، لانهم اصطدموا بردود الفعل الشعبية وبوقوف رجال الفقه وأئمة الدين فى وجههم حتى ألجاؤوهم الى التخلي عن الدعوة أصلا، وبدأوا يفكرون فى نقل الدولة الى المشرق، وتاريخ الصراع العنيف بين علماء المغرب والدعاة الفاطمين أشهر من أن يذكر . لهذا اعتمد الفاطميون عند لجوئهم الى مصر على الدعوة المجردة وعدلوا عن المجابهة بينهم وبين السكان وأرصدوا الازهر لما أنشأوه له من الدعوة، وحشدوا له الاطر الكفية من أعلى درجة، على ما أشرنا اليه آنفا، ولكننا على طول المدة التى ملكوا فيها واستفحال ملكهم وامتداده الى خارج مصر، وأغيائهم فى نشر مذهبهم والدعاية له والتظاهر بشعائره، لم نر له من أثر على عقيدة الشعب المصرى واتجاهه السنى، فما أن أعلن صلاح الدين الايوبى اقامة الخطبة لبنى العباس بمصر سنة 567 وكان قد مر على قطعها ــ كما يقول الحافظ ابن كثير فى كتاب البداية والنهاية ــ مائتا سنة وثمان سنين،

منذ تغلب الفاطميون عليها، حتى عادت المياه الى مجاريها، وكان شيئا لم يكن فلا أثر للدعوة الفاطمية ولا لفقه الشيعة الذى كان الحكم يجرى بحسبه والحال ان العاضد أخر خلفاء الفاطميين ما يزال بقيد الحياة، ولكنه لم يفتأ أن توفى. وعزل صلاح الدين قضاة الشيعة وولى القضاء علماء من أهل السنة، وكانت المعجزة ان الازهر التى لم يخرج فى مائتى ستة شخصا واحدا شيعيا من أهل مصر، مع انه انما أنشىء لذلك، هو الذى استمر على مر السنين، بعد ذلك يخرج من أعلام السنة وفقهاء المذاهب الاربعة من مصر وأقطار العالم الاسلامى ما لا يحصى ولا يعد .

ومن هنا يبدأ تاريخ الازهر الجامعة، فقد أعيدت اليه الجمعة بعد توقف قليل، نظرا لاقامتها فى جامع الحاكم لكونه أوسع، مع اعتماد مذهب الشافعية الذى يقول بعدم تعددها فى البلد الواحد وبعد الجمعة وتجديد الظاهر بيبرس له جعلت أنظار أهل العلم تتجه اليه وتلقى فيه بعض الدروس لكن حركة انشاء المدارس العلمية التى نشطت على عهد السلاطين من بنى أيوب وتوظيف المدرسين فيها من علماء الحديث والفقه وسائر العلوم، استقطبت طلبة العلم والمدرسين فلم

تعد الدراسة الى المساجد، ومنها الازهر الا بعد ضعف هذه الحركة وانقطاع الجرايات المخصصة لها.

ونما الازهر شيئا فشيئا وأصبح قبلة العلماء والمتعلمين ونال من عناية الملوك والامراء والوزراء ما جعله يتميز عن بقية المساجد الجامعة. ولم يلبث ان صار أهم مركز في العالم الاسلامي للدراسات الاسلامية والعربية وغيرها من العلوم والفنون، أى أنه اكتسب صفة الجامعة من جديد، ولكنها في هذه المرة جامعة على مذهب أهل السنة والجماعة، يقصدها الطلاب من كل فج عميق، هذا ليتفقه في الدين، وهذا للغة والادب، وهذا للفلسفة والاخلاق، وهذا للعلوم الرياضية والطبيعية، وغير ذلك من التخصصات العلمية التى تولت رعايتها مصر بعد سقوط بغداد واضطراب الاحوال في المغرب، وهجرة الكثير من الادمغة العبقرية اليها، ومنها على سبيل المثال من المغرب عالم النحو واللغة الكبير أبو حيان أثير الدين محمد بن يوسف الاندلسى الغرناطى وعالم الاجتماع وفيلسوف التاريخ أبو زيد عبد الرحمن ابن خلدون.

وفى هذا الحين كان الانتساب الى الازهر شرفا يفخر

على النسب الخاص للشخص، فهذا الشيخ خالد بن عبد الله النحوى الشهير عرف بالازهرى وترك نسبه لانه هو نفسه كان ينتسب الى الازهر، وله متن في النحو لا يعرف الا بالازهرية

والازهر كما هو معلوم ثالث ثلاث جامعات اسلامية كبرى طبقت شهرتها العالم، وهى جامعة القرويين بفاس وجامعة الزيتونة بتونس والازهر بمصر، ولكن الازهر امتاز عن القرويين والزيتونة بكونه أوسع أفقا وأرحب ساحة، فهو بحكم احتضان مصر للمذهب الشافعى، وانتساب حكامها الاتراك الى المذهب الحنفى، مع انتشار المذهب المالكى فيها من قديم نظرا لاستقرار تلامذة مالك الكبار بها كابن القاسم وابن وهب وابن عبد الحكم وغيرهم، صار معهدا لدارسة الفقه على المذاهب الاربعة المتبعة فى العالم الاسلامى لاسيما وقد كانت بمصر مدارس رسمية موقوفة على فقهاء هذه المذاهب، ولما اضمحلت انتقل الدارسون بها الى الازهر فهذه الميزة مما انفرد به الازهر وجعله مقصودا من جميع انحاء العالم الاسلامى التى تتمذهب بآحد هذه المذاهب، ولا كذلك الزيتونية أو القرويين .

ثـم أنه لتوسطه فى مصـر صلة الوصل بين افريقيا وآسيـا وقلب العالم الاسلامى والعربى، كان مهوى أفئدة الطلاب مـن القارتين وفى العصر الحـديث جعلت الوفود تؤمه حتـى من أروبا وأمريكا، فهـو يؤوى الالـوف من الطلبة والـدارسين الواردين عليه من الخارج زيادة على أبناء مصر الذين يقصدونه أيضا بالآلاف، لاسيما بعد تنظيمـه تنظيما عصريا واحـداث شهادة السلك الثالث به وقيام مدينة البعوث مـقام الاروقـة التي كانت محل سكنى الطلبة، وكان رواق المغاربة مما يـدل عـلى استيعابه من قـديم حتـى لطلبة البلاد التى لها جامعـات موازيـــــة .

وحسبنـا هذا فى التعريف بجامعية الازهـر، وان كـنا لم نزد على حكاية الواقع، وخير الكلام ما قل ودل .

ونتكلم عـلى الازهر الـرباط، وهو كلام يبتدىء بـرفضه للرفض الشيعى الذى عبرنا عنه بالمعجزة، ويتمادى مقترنا بعلمه في نشر العلم، ذاك العمل الرائع الذى رأينا صورا منه فى الازهر الجامعة ولا يخفى أن القيام على تعميم المعـرفة وحماية العقيـدة واعلاء كلمة الله هو من افضل الربـاط، ألم يقل الله عز وجل في كتابه العزيز: (وجاهدهم به رأى بالقرآن]

جهادا كبيرا) ؟

لكن الازهر على بلائه الحسن، دائما، بالفكرة والكلمة، كان ينزل الى الميدان كلما اقتضى الحال ذلك، ولا يكتفى بالقول عن الفعل ولذلك فهو يعتبر رباطا وقلعة لحراسة الكيان ورد كل هجوم على الشعب المصرى المسلم سياسيا كان أو عسكريا بالمواقف المشرفة والثورة العارمة، ويذكر المؤرخون فى هذا الصدد أكثر من موقعة خاضها علماء الازهر مع الولاة المستبدين والظلمة المستعمرين بحقوق الرعية المتسلطين على رقابها والغاصبين لاموالها، فما هو الا أن يتنادى العلماء بمقاومة الطغيان ويستجيب لهم عامة الناس، حتى يتراجع أولئك الحكام عن غيهم ويلقوا باليد خوفا من الاطاحة بكراسيهم وذهاب أرواحهم، وكم من تظاهرة قام بها الشعب ضد الجور والفساد ولجأ القائمون بها الى الازهر احتماء به وطلبا لتدخل علمائه أرجعت المسؤولين الى صوابهم وتلافوا ما فرط منهم بمجرد انذار العلماء لهم ووقوفهم بجانب المتظاهرين علما منهم بما للعلماء من نفوذ فى أوساط الشعب، وانهم ان غضبوا لا يقف فى وجههم شىء .

وفى العصر الحديث كان علماء الازهر أكبر المعارضين

والمقاومين للحملة الفـرنسية وغزو نابليون لمصر، وبرغـم تودد هذا الطاغيـة لهم وتقربه اليهم فأنهم حاربوه في الـسر والعلن حتى أثاروا حفيظته عليهم وفتك بعدد كبير منهم، وما كان ذلك ليثنيـهم عن الائتمار به والتحدى لسلطانه لحد انـه لما اضطر الى العودة لفرنسا وترك الجنرال كلبير خليفة عنه في حكم مصر قتلوه وكـان ذلك سببا في انسحاب فرنسا مـن مصـــر .

وكذلك قـاوم علماء الازهـر الاحتـلال الانكليزى لمصـر واشتركوا في ثورة أحمد عرابى، وكان الشيخ محمد عبـده من الضالعين في هذه الثورة الشهيرة، وعوقب عليها بالنفى كما عوقب قائدها عرابى، وفي ثورة 1919 بقيادة سعد زغلول كان الازهر منطلقا لهذه الثورة وكان منبره مثابة للخطباء والشعراء المحرضين على مقاومة الانكليز والمطالبين بالاستقلال

وكل من عرابى وزغلول ينتمى الى الازهر بحكم دراسته فيـــه .

واذا دل هذا على شيء، مما نحن بصدده فهو ان الجامعات الاسلاميـة، وعلى رأسها الازهـر، حصن حصين لكيان البـلاد المادى والمعنوى فكما أنها تحافظ على مقوماتها الروحية من

دين وعلم وخلق، فهى كذلك تحافظ على حريتها واستقلالها وأمنها ... وقد كان الفرنسيون يسمون القرويين بالبيت المظلم، ويخافون منه على وجودهم فى المغرب أكثر من خوفهم من جيش منظم يحاربهم ويعمل على انهاء حكمهم له، وقد كان ما خافوا منه وانبعثت طلائع المقاومة من القرويين كما انبعثت الثورة على الانكليز فى مصر من الازهر .

هذه كلمة لا تفى بحق الازهر، ولا تؤدى ما فى أنفسنا من شعور عميق بعظمته، ونحن نحيى عيده الالفى، ولعل الاوصاف الثلاثة التى وصفناه بها تكون أكثر تعبيرا من كل ما يقال فيه وهى المعجزة والجامعة والرباط .

لماذا يشوه الغربيون تاريخ الاسلام وحضارته

يكثر الاستنكار والتدمر من موقف الكتاب الغربيين من تاريخ الاسلام وحضارته وقلة أنصافهم وعدم اعترافهم بالحقيقة ولا ينتظر من خصوم الاسلام ان يمجدوا تاريخه وينوهوا به، وهم من أول ظهوره كانوا له أعداء وكانوا بنبيه كافرين، ولا ننسى ما تقولوه على النبى الكريم في قصة الأفك والغرانيق وزيد وزينب وغيرها مما قصه القرآن ورده ردا حاسما وكان اليهود والمنافقون من وراء هذه الافتراءات وترويجها بين المومنين أملا فى تشكيكهم وارتدادهم عن الدين الحنيف .

ولما نشأت الدراسات الاستشراقية بعد الحروب الصليبية واهتم الغربيون بنقل العلوم العربية وترجمة الكتب الاسلامية الرائدة الى لغاتهم، مما كان سببا فى نهضة أوربا وتفتحها على دنيا المعرفة وعالم الفكر، نسج المشتغلون منهم بالتاريخ والدراسات الاجتماعية على منوال سلفهم من خصوم الاسلام الا أقلية نادرة وكان منهم يهود حاقدون وكان منهم مسيحيون متعصبون، وكان منهم ملاحدة لا يومنون بدين، فكان همهم هو تشويه التاريخ الاسلامى ووصمه بما هو براء

منه، حقدا وبغيا من عند أنفسهم، وادعوا أنهم يقومون بأبحاث ذات طابع علمي، وأنهم يتجردون من كل باعث الا باعث الكشف عن الحقيقة التاريخية وهم غير صادقين فيما يقولون، وان اغتر بهم بعض المغفلين وقليلو الاطلاع على المصادر التاريخية المعتمدة .

ومن الجدير بالذكر أن ننوه بأن أمانة علماء التاريخ عندنا واهتمامهم بتسجيل جميع الروايات المتعلقة بالاحداث والوقائع التاريخية، سواء كانت صحيحة أو ضعيفة بل حتى لو كانت موضوعة تلوح عليها امارات التزوير، كان مما استغله المخربون اسوأ استغلال فى اصدار أحكامهم وتسطير أباطيلهم، معتمدين عليه دون الروايات الصحيحة، تعنتا منهم وتعصبا ممقوتا .

وللكنيسة دور كبير فى هذه المهمة الشنيعة، وقد أشار الى ذلك الكونت دوكا ستري فى كتابه الاسلام خواطر وسوانح ، قائلا كفى تخرصا وافتراء من القسس الذين يلقنوننا أن المسلمين يحجون الى مكة حيث يوجد داخل الكعبة فيها تمثال لمحمد من الذهب عيناه من الياقوت ولا يقصر الادباء والفنانون في هذا الصدد عن المؤرخين والكتاب الاجتماعيين من المستشرقين

فدانتي الشاعـــر، الايطالى المعروف صاحب الكوميديا الالهيـة التـى لها قيمة عظيمة فـي الادب العالمـي ـمع أنه استفـاد كثيـرا فى وضعها من التـراث العربي خاصة رسالـة الغفران للمعـرى وكتاب الفتوحات لابن عربى وقصة المعراج، فانـه لم يخجل أن يجعل النبى (ص) في الجحيم مع الكفار والملاحدة وبعض الفلاسفة .

وكذلك تمثيلية فولتر التى شهر فيها بالرسول (ص) وهـو يعتبر فى فرنسا من اعلام الفكر الحر، وكأنه كان يدارى عـن حريته والحاده بالتقرب الى الكنيسة فى هذه التمثيلية القذرة .

عـلى أن هذا كله لم يكن ليؤثر فـى التصور العام للتاريـخ الاسلامى شيأ عند بعض الناس، لولا ما ترجم من كتب المـادة وغيرها الى اللغة العربية، ودراسات المستشرقين حول حياة النبى (ص) والفتوح الاسلامية والخلفاء الراشدين والصحابـة عمـومـا والملـوك المسلـمين وتاريـخ التشريع والعقيـدة الاسلامية والتراث العربى بعامة، مما شحن بالافكار المعـادية للاسلام والتحامل على رجالاته والدس والتشنيع ومجافاة الصواب عن عمد واصرار، من غيـر أن يصحح ذلك ويرد الخطأ الـذى يتضمنه وتبين الحقيقة ويحرر الموضوع عند الترجمة ويحـذر

مما فيه من تخرص وتزوير، يحسبه الجاهلون، حقائق تاريخية مبنية على البحث والتمحيص، ولاسيما عندما يكون المصدر يوحى بأنه من العلماء والباحثين النزهاء كدائرة المعارف الاسلامية والكتب المختصة .

وقد شعر مترجمو الدائرة بما فى بعض موادها من تقول رخيص فراموا تصحيحها ولكن على استحياء وببعض كلمات لا يكون لها الاثر المطلوب .

ثم زاد فى الطين بلة أن بعض الدارسين من أبناء البلاد الاسلامية الذين تتلمذوا في الجامعات الغربية على بعض هؤلاء المخربين تبنوا أفكارهم واعتمدوها فى دراستهم ودروسهم فخرجوا لنا جيلا من الشاكين المشحونين بأباطيل المستشرقين ، وكان عملهم أكثر فسادا واشاعة للبلبلة والتجريح للتاريخ الاسلامى الذى يجب أن تعاد كتابته بروح الايمان والخيرة والبحث العلمي النزيه من أبنائه المومنين به، المتعمقين فى فهم نصوصه، العارفين بما جرياته وأحواله الذين لا يوتون من تعصب ولا يتهمون بادعاء فقد ثبت أن علماء المسلمين وباحثيهم احرص على العلم وأولى من قال الحق ولو على أنفسهم .

وعلى كل حال فان مما يعزينا عن هذا التجني من خصوم الاسلام هو انصاف بعض الباحثين الغربيين واعترافهم بالحقيقة ومديونيتهم للمسلمين في نهضتهم العلمية حتى أن فيهم من يعتنق الدين الاسلامى عن دراية واقتناع بأنه الدين الحق والطريق المستقيم وذلك مما يزيد فى حنق بعض هؤلاء المتعصبين وحقدهم هداهم الله .

ادبيـــات الـــدعـــوة

لما كنـت متوجـها من الدار البيضاء الى مراكش لحضـور المؤتمر الرابع لرابطة العلماء جرى على لساني الدعاء الاتي:

آيارب ان الامـر آمـرك كلـه
ومنك لنا التأييد والعون والنصـر
فيسـر علينـا ما تعسـر واهدنـا
مسيـرة بـر فـى سبيلك يا بـر

مسيرة بر بكسر الباء، ويا بر بفتحها كما لا يخفى ،،، وكـان برفقتي الاخوان الفاضلان العالمان الجليلان السيد عبد اللـه شاكر الـجرسيفى والسيد الحسين وجاج، فرددا، معي هـذا الدعاء ومررنا في طريقنا بين الصويرة ومراكش بقرية تسمى الذيابات وقد غزتها جموع الهبيين بمباذلهم وأقذارهم فقلت:

ان الذئـاب احاطـوا بالذيابـات
ومـا الخبيثـون الا للخبيثـــات
متـى تجنب هـذهالارض رجسهـم
يا للرجـال وأربـاب المـروءات

وحين كنا بمراكش، كانت مأذنة الكتبية تواجهنى من كل

مكان، وتخيلتها سبابة مرفوعة تشير الى الوحدانية فقلت هذه الابيات :

مـأذنـة الكتبيـة انتصبت | كشـاهـد بـوحـدة اللـه
أحسب مراكش قـد سمعت | قول النبـى «وحـد» لأواه
فـرفعت سبـابـة فـذة | تنبـه الغافـل والـلاهـى

والاشارة فى البيت الثاني الى ما جاء في الحديث ، من أنه صلى الله عليه وسلم رأى رجلا أشار بسبابتيه فى التشهد فقال له: احد احد بقطع الهمزة وتشديد الحاء المكسورة على صيغة فعـل الامر، أى وحد الاشارة بأصبع واحد ،

وفى أثناء انعقاد الجلسة الافتتاحية للمؤتمر ، وانا ألقـى خطـاب الامانة العامة، عـند التعرض لظاهرة انتشار الخمـر والفساد، مال علي السيد وزير الأوقاف والشؤون الاسلاميـة وأبلغني قرار جلالة الملك بمنع تعاطى الخمر والتجارة فيهـ بيـن المسلمين فقطعت الخـطاب وأبلغت الامر الشريف الـى الجمهور الذى قابله بعاصفة حادة من التصفيق .

ثم قلت فيما بعد هذه الابيات :

غرسكـم أثمـر من يومـه | يا ناصـري الملة والديـن

فهــذه الخمرأتــى منعــها   عن أمــر سيــد السلاطيــن
كــذاك كل مطلب بعدهــا   محقــق ولــو الــى حيــن
فأنهــا شريعــة المصطفــى   تقــول رب البيت يحمينــى

ويحلو لنا أن نحيى هذه الذكرى الادبية لمؤتمر مراكش ونسأل الله عز وجل أن يوفقنا ويسدد خطانا وان يعلي كلمة الحــق والدين وينصر الاسلام والمسلمين بمنه وكرمه آمين .

السلطان مولاي حفيظ والحماية

كانت جلسة أدبية مع ثلة من الشباب يبحثون قضايا الفكر والتراث في تاريخ المغرب الحديث، ولاسيما ما يتعلق منه بالرجات الكبرى التي أصابت البلاد كاحتلال بعض المدن من طرف قوات الاستعمار الإجنبي الذي كشر عن أنيابه لتمزيق وحدتنا الترابية، وفرض الحماية الفرنسية والاسبانية والدولية على مناطق من وطننا العزيز وما كان لذلك من أثر في نفوس المواطنين عموما والمثقفين منهم بالخصوص وانعكاس ذلك الاثر على الاعمال الادبية لهؤلاء المثقفين من كتاب وشعراء ومؤرخين وحتى الفقهاءالذين لابد أن يستنكروا استيلاء الكفار على أرض الاسلام، ويصدروا الفتاوى ويلقوا الخطب في وجوب المقاومة وعدم جواز الخضوع لحكم أعداء الدين .

وسأل شاب من المهتمين بالموضوع هل نجد من قال شعرا في احتلال مدينة الدار البيضاء سنة (1925) ولو كان من قبيل ما قيل في احتلال تطوان في القرن الماضي :

يا دهر قل لي علامه كسرت جمع السلامة !

فعلق الاخـر أن احتلال الدار البيضاء كان مأساة، فقد ضـربت بالمدافع وماتت خلائق كثيرة من سكانها الابرياء، فرد صاحب السؤال قائلا: انها كانت بحاجة الى من يقول فيها مثل ما قال شـوقـي فـي دمـشـق :

سـلام من صبا بـردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشـق

فقال المعلق: ان فاس ضربت كذلك بالمدافع ، وأصيبت بعـض مساجدها وأضرحتها ولم نسمع من قال فيها شعرا، فاستـدرك السائل أن حـافظ قد قال في المغرب على العموم عند اعـلان الحمايـة، قصيدة هـذا مطلعـها :

هفت العـروش وزلـزلت زلـزالا

عـرش هـوى وقديـم ملـك زالا

فصاح صاحب التعليق اننا نبحث عما قاله المغاربة أنفسهم لا ما قاله حافـظ أو غيره، وتدخل أحدهم قائلا دعونا من الشعـر، ولنتحدث عن الكتابة، فهل كانت هناك أقلام تناولت القضية من الجانب السياسي والقانوني، ودافعت عن استقلال المغـرب، ونددت بالتدخل الاجنبي، واحتجت على الاقل بمؤتمر الجزيرة الخضراء الذي أصفقت فيه كلمة الدول على احترام استقلال المغرب والاعتراف بسيادة السلطان على كامل ترابه،

وطالت الجلسة وكثرت الاستفسارات والردود، ولكنها لم تنفصل على شيء جديد الا ما هو معروف، من أن هناك أشمارا دون المستوى المطلوب فى هذه الاحداث الخطيرة، وكتابات معظمها انشائى وبأسلوب لا يقره العصر، ولذلك بقيت فى أدراج أصحابها ولم يكن لها صدى يعتد به، وكنت أشرت ونحن نتجاذب أطراف الحديث الى أن للسلطان مولاى حفيظ الذى أمضى عقد الحماية على ما هو معروف، أشعارا كثيرة فى الموضوع، ندد فيها بالحماية وما جاء منها، وهاجم الحماة واتهمهم بالخيانة فى لهجة شديدة وانفعال قوى، فطلب الجماعة أن أطلعهم عليها فوعدتهم بذلك، وأعتقد أن ذكرى عيد العرش وهذا العدد الخاص بها من مجلة دعوة الحق، فرصة مناسبة للوفاء بذلك الموعد، وكم أوحت الينا هذه الذكرى المجيدة من معان وأفكار وموضوعات تاريخية ضمناها قصائد شعرية وأبحاثا سياسية تعكس المغزى الذى من أجله أنشىء عيد العرش، وهو تعزيز السيادة الوطنية والمركز الدولى لوطننا المغرب .

ومن هذا المنطلق ننظر فى شعر السلطان مولاى حفيظ الذى نصنفه في باب الشعر السياسى والتاريخي لتعلقه بالحماية

وظروفها المعروفة، ونتسامح فى صياغته المهلهلة ، لان ما يهمنا منه هو مضمونه وقائله، وفى ذلك ما يحدد الموقف الرسمى من هذه الحماية المفروضة، ويلقي عليها أضواء كاشفة من المسؤول الاول عنها.

وأول هذا الشعر قصيدة طائية القافية، من خمسين بيتا ، من الطويل، سماها الطامة الكبرى ، وهو اسم مقتبس من القرآن الكريم الذى عبر به عن يوم القيامة ، ولاشك أن السلطان عنى بهذا الاسم الهائل الحماية ، وان كان لم يتحدث عنها الا بالاعتذار ومجادلة الخصوم الذين يحملونه تبعتها، فهو يفتتحها بالرضا والتسليم لما قدر ويتحدى للائمة على المنتقد والمعترض، ويتساءل هل يمكن للعبد مهما كان شأنه أن يدفع المقدور، ويقول :

فان كنت قد أعطيت جاها فحاسبن
نفائس أنفاس تجدها على خطأ
وان كنت قد أعطيت علما ولا أرى
لديك سوى نزر فما يكشف الغطا
وان كنت ذا ورد على فرض أنه
على المنهج المحمود فلتخش محبطا

أيرفـــع حكم اللـــه أن قـــال قائـــل

رأيت خـــلاف الحكم كشفا مورطـــا

ويمضي على النسق في الجدال مستظهرا بأنه نصح وعلم ودعـــا الى التمسك بالكتـــاب والسنة ونصرة الدين فلم يستجب لـــه أحـــــــــــــد :

دعـــوت لنصـــر الدين كـــل موحـــد

فما أبصـــرت عينى مجيبا مرابطـــا

ونلاحظ أن القافية فى هذا البيت مؤسسة وفى الابيات السابقة مطلقة وهو عيب من عيوبها، ولكن القصيدة فى غالب أبياتهـــا علـــى هـــذا المنـــوال .

وفى شعـــر الســلطان قصيـــدة نونية من ستين بيتا من بحـــر الوافر، يتشوق فيها الى المعاهد والمرابع من أرض الوطـــن فهى على هذا منظومة بعـــد التنازل عن العرش، وفـــي أرض الغربـــة، وتسمى لسع العـــقارب والافـــاعى في افشاء خبـــث المساعـــى، ولذلك فهى تتعـــرض أيضا للـــرد عـــلى المتقـــولين والمتجنين عليـــه، وتنفى عنه كل تهمة بالخيانة والمضاربـــة بالمصلحة العليا للوطن .

يقول فى الغرض الاول :

أنفســى هل رضــيت بــذل خــزي

منــــوط حكمــــه بالكاتبيــــــــن

وهــل أضناك بالتذكــار حـــب

وهــل أغــراك شجو البــاءثيــن

ولــم أعهــد طبيــعتــك التصابــى

ولا الافــراط عنــد الــرحلتــيــن

وعهــدى أن نفــس الحــر تهــوى

منــاخ الــعــز ارث المــاجــديــن

وتأبــى الملــك فــى أرض بــذل

ولــو كــانت مقــر الــوالــديــن

فلم يــرض السرى نقــيض هــذا

والا فانتهـــاج القـــارظيـــن

ومــن يهوى الــركــون لارض ذل

خليــق أن يــؤوب بخــزيتيــــن

آجــابت بــالبــدار عقيــب هــذا

أتــرضــى آن تــؤوب بخــيبتيــن

ألــم تسمــع مقالــة أهــل جحــد

بنـــاد رافــض لــلاطيبيـــــــن

بآنــك بائــع الاحــرار ظلمــا

بــافشــاء لأردى الناقليــن

ففــاض الدمــع بالتسكــاب فيضــا

بمــا قلتيــن لــى نضاختيــن

فــان ابتــع بملكــى ربــح ذل

اذن يــدعى رجوعــي بالحنييــن

وان أدع الخــؤون فــأن مــالــى

غــدا منــى كــأثــر بعــد عيــن

نصــيب حــازه المبتــاع حقــدا

وآخــر عنــد أهــل القبلتيــن

ويقــول فى الغــرض الثانــى :

وهبنــى قــد فعــلت جميــع هــذا

وقــد بعــت الجميــع بــدرهميــن

فلــم أخرج بأهــل الغــرب طــرا

ولــم أك آمــرا بالجلستيــن

فهجــر أو جهــاد ديــن ربــي

ومــا الايــواء احــدى الحسنييــن

ومالــى لا أرى المقــدام يــدعــو

مــطــاع الامــر رب الــدعوتيــن

وان يـك بالدفـاع لـه اقتـدار

ولـم يفعـل فشـر المـاكـريـن

وان بـالعجـز كـان لـه اتصـاف

فـمـا أغنـى حليـف الكـذبتيـن

عنيـدى هـل سمعـت نسيج شعـر

لشهـم ساطـع كـالـنيـريـن

فهـون فى أقاصـي النـاس هيـن

وهـون فى العشـرة غيـر هيـن

آمـر بالقتـال وجـل قـومـى

يـرى أن الحمايـة فـرض عيـن

آمـر بالـجهـاد وحـال قومـى

تلاشـى فـى لذائـد خـصـلتيـن

بـاسـراف النكـاح وشـر أكـل

فـلا ترجـى الكنـوز لغيـر ذيـن

والقصيدة الثالثة التى قالها السلطان فى موضوع الحماية ، هي قصيدة ميمية تـقع فى تسعة وخمسين بيتا من بحـر البسيط ، وكلها تشهير بالحماة وتعرية لهم وكشف عن مساويهم ودلالـة على ما يخفونه من دناءة ومكر وخداع، ويظهر أنه نظمها فى

حالة غضب وثورة نفسية وضيق، بما يعانيه من معاملتهم السيئة وهو لاجىء بديارهم وواقع تحت حكمهم، وهذا ما ينبىء به مطلعها الذى يقول فيه :

لا مرحبا بديار فوقها علم
ابان شرا وأفشى الفحش بينهم

لابارك الله فى أرض بها قطنوا
ولا سقى الغيث ربعا فيه حكمهم

لا خيرفى العيش في الاقطار قاطبة
اذا تحكم فى العلياء منتقم

انى يكون لهم في الارض مكرمة
وبيت مجدهم فى العز منهدم

انى تكون لهم فى الارض مفخرة
وقد تحقق عند الناس كذبهم

ومنها فى التبرم بهم والدعاء عليهم :

لا بلغوا أملا يقضى به أرب
وحكم الله سيفا فى رقابهم

ترجو القلوب وقلبى كل منقصة
تحل أرضهم فى اثرها النقم

قــد آن يقضى على من كان متــصفا

بالجور فى الارض بين الناس ينعدم

كم من قلوب لدى الاسحار ساجية

تسائــل الله جهــرا فــى خرابهــم

كم من عيون لدى الاسحار باكيــة

حتــى تكون بيــوت الذل دورهــم

ومنها فى التحدث عن نفسه ونزوحه عن المغرب :

لئن تــركنا لواء المجد عــن كرم

فقــد بكت فقدنا الاعلام والحكــم

وودعتنــا شموس العلــم كاسفــة

بفقــدها الكفء لما حازهــا الخدم

وشيعتنــا قصــور فــاض مــدمعها

وقبلــها الاهل والاوطان والنقــم

وفى هذا الشعر قصيدة للسلطان على غرار القصيدة المعروفة : (يا غــارة الله) وزنا وقافيــة ، يدعو فيها على أعداء الديــن الذين غيروا أحكام الشريعة وجعلوا الظلم شعارا لهم، واغتروا بقوتهم التى ظنوها ما نعتهم من مكر الله، مستنزلا غضب الله عليهم وبطشه بهم، ومن ثم عبر فى افتتاحها بيا سطوة اللــه.

بــدل يــا غــارة اللـــه .

وبهــا ينتهى ما وقفنا عليه من شعــر مولاى حفيظ الــذى ينطبــق على كل ما قيل عنه من أنه أمضــى عقد الحماية تحت الضغط الــخارجى والــداخلى، وأن النص الذى أمضاه من هــذا العــقد المشؤوم ليس هو النص الذى وقع التعامل عليه بينــه وبيــن الحماة الغــزاة، وأنه تنازل عن العــرش لعدم قبولــه التصرفات الاستبدادية التى صار موظفو الحماية يباشرونهــا وغير ذلك مما ضاق به ذرعا ونفس عن صدره منه بنظمه لهذه الاشعار، ولله الامر من قبل ومن بعد .

صـــراع اللهجـــات

قرأت فى المدة الاخيرة مقالا للاستاذ المرحوم شفيق جبرى مـن هذه المقالات التى كانت مجلة المجـمع العلمى العربـي (مجمع اللغة العربية بدمشق) تفتتح به أجزاءها، وكان عنوانه مـرونة دمشق ومنذ قرأته وأنـا أحاول التعليق عليه ولكـن الاشغال تصرفنى عن ذلك، والباعث هو أنه أثار فكرة طالمـا راودتنى في صراع اللهجات، فتعليقي عليه هو من باب تجاوب الأفكار، وربما طرح تفسيرا للقضية لا أجزم به كما لم يجـزم الاستاذ جبرى فيما لاحظه من مرونة أهل دمشق فى هذا الباب.

يقول الاستاذ جبرى انه شاهد فى دمشق امرا لم يشاهـده فى بلد آخر ، وهو أن الوافد على هذه العاصمة العربية الكبرى من أى بلـد عربى آخر، لبنان أو فلسطين أو مصر او الحـجاز أو العراق (ولم يذكر المغرب العربى) لا يغير حديثه في لهجة بـلده ولو أقام بها سنين عديدة، وعـلى عكس ذلك فأن أهـل دمشق اذا غادروها الى بلد آخر مما ذكر، لا يستقر بهم المقام فيه حتى يأخذوا بتقليد لهجة ذلك البلد ويعدلون عن لهجتهـم الدمشقية، وضرب بعض الامثلة على ذلك شملت غير دمشق من

بـــلاد الشـــام .

ويعلل ذلك بأن دمشق عبر تاريخها الطويل استقبلت كثيرا مـن الغزاة والفاتحين، وان أهـلها كانوا مضطرين لمسايـرة الموجات البشرية التى اكتحستها تبعا لذلك فى أمور عديـدة ومنـها تقليد اللهجات المختلفة لاولئك الاقوام، ولم يـنته أن يلاحظ أن بـلادا أخرى شهدت مثل ما شهدته دمشق من ذلـك ولكن أهلها لـم يغيروا لهجتهم فى الحديث من باب المسايـرة كمصر، فيعزو ما اختصت به دمشق أخيرا الى مرونة أهلها وان كان لا يجزم بذلك على سبيل القطع

وأقول اننى لاحظت منذ عدة سنين كيف تتصارع اللهجـات بين المدن والاقاليم داخل المغرب، ثم خارجه، وحين تأملـت فى الامـر مليا وجدت ان ذلك لا يقع بين المدن أو الاقاليـم المتكـافئة وخصوصا اذا كانت صغيـرة أو متجـاورة، فطنجـة وتطوان لا يحدث من أهلهما شىء من ذلك، يسكن التطوانـى طنجة ويـقطن الطنجى بتطوان مدة طويلة ولا يغير أحدهـا لهجته الى لهجة البلد الذى يحل فيه، وبين لهجتهما خلاف غير قليـل وكذا يقال فى الرباط وسلا على تقاربهما وحسبانهمـا كالبلد الواحد ومع ذلك فلهجة الرباطى غير لهجة السلوى، ولا

يلاحظ البتة أن السلوى قلد لهجة الرباط أو العكس

لكن اذا انتقل الطنجى أو التطوانى أو الرباطي أو السلوى الى فاس فسرعان ما نجده يقلد لهجة أهل فاس وينقلب حرف المضارعة عنده الى تاء فتسمعه يقول: تناكل تنشرب تنقرا مثلا، ويتحدث كفاسي ربما حتى في حال عودته الى بلده حيث يفتضح أمام أهله وأصدقائه، ولا كذلك الفاسى اذا انتقل الى هذه المدن، فانه يبقى متمسكا بلهجته طوال حياته وربما أورثها لبنيه ، وبذلك يتميز الفاسى فى أى مدينة حلها ولا يتأقلم مع من يساكنهم الا بعد أمد طويل .

وأكثر ما يميز نطق الفاسى، هذه الراء التي يقترب بها من الغين، ولا يتفصى منها بحال ، وتسمعه فتعرفه ولو نطق من وراء البحار وكان صديقنا المرحوم عبد الكبير الفاسى يسميها راء الحضارة ، تلميحا الى أن الفرنسيين ينطقونها كذلك .

وتأتى نقلة أخرى وهي نقلة الفاسي الى مراكش وكذا من ذكر قبله، فلا يلبث أن يصبح مراكشى اللهجة ينطق بالقاف المعقودة، ويقول · ڭل لى نڭل لك، وما أشبه ذلك وهكذا تذوب لهجته القوية فى لهجة يظهر انها أقوى منها .

ثم تأتى نقلة أخيرة تهـدم هذا كله، وهى نقلة هؤلاء مـن مراكشي وفاسي وتطواني وغيرهم الى مصر فينقلب الجميع الى مصريين وتتبدل لهجاتهم فتصبح مصرية خالصة ويسقط حـرف المضـارعة من كاف وتاء وغيرهما ويصير باء أو حـاء، حسب اللزوم ويقولون فـى ظرف الزمان: ذى الوقتي وربما اخروا أدوات الصدر تقليدا مخلصا للهجة المـصريين فيقولون لك : تمشي فاين وتتكلم علىمن؟ وهكذا تأكل اللهجة المصرية جميع اللهجات لماذا؟ ألأنها الاقوى ؟ محتمل .

لكن الواقع هو هذا ، وهـو ملاحظ فى البلاد العربية كلهـا تقـريبا فالسـودان لانكاد نفرق بينه وبين مصر، وقد يكـون ذلـك راجعا لـطول اقامة المصريين فى السودان وحكمهم لـه ولكن تقليد العالم العربى لمصر فى كثير من الالفاظ والعبارات وطريقة النطق واضح فى المغرب العربى كله وفي السعوديـة ودول الخليج وسوريا وغيرها وهو يرجع الى عدة أسبـاب لا نستثنى منها قوة اللهجة المصرية وتهذيبها وتطويرها المساير لاحداث الزمن .

ومن أعظم الادلـة على قوة اللهجة المصرية فى نظرنا انهـا تغـزو الاجانب المقيمين بمـصر عـلى اختـلاف جـنسياتهـم

وطبقاتهم، فقلما تجد اجنبيا فى مصر أو أقام بها مدة من ديبلوماسى أو تاجر أو عامل، لا يتكلم العربية بلهجة مصر ، وليس هذا لغيرها من بلاد العرب فيما نعرف .

نخرج من هذا بنتيجة هى أن اللهجات يسالم بعضها بعضا اذا كانت لبلاد متكافئة وتصطرع اذا كانت لبلاد متنافسة ويكون التحكم لاقواها فيما يظهر، ولا ندعى أن هذا الرأى هو الحكم الفاصل فى القضية لا سيما وان المسألة لها استثناءات ومنها أن التقليد لا يكون فى كل ألفاظ اللهجة القوية كما سميناها .وان التقليد قد يكون من الاقوى للاضعف كما يقع فى حرف القاف مثلا من تقليد أهل المدن لبعض قبائل البادية فى نطقه معقودا بمجرد اقامتهم فيها ولو قليلا بل حتى وهم فى مدينتهم ، ويعترض هذا الحكم أيضا ما قاله الاستاذ جبرى من ولع أهل دمشق بتقليد لهجات غيرهم من الاقطار ، علما بأننا لا يمكن أن نقول أن دمشق مدينة غير قوية الشخصية وانها من المدن الصغيرة فيبقى تعليله لهذه الظاهرة بالنسبة الى أهلها بالمرونة التى وصفهم بها له وجه من النظر .

وأخيرا نلاحظ ان تقليد اللهجات قديم وانه كان يلقى استنكارا شديدا من الناس، ويحكى في هذا الباب أن بعض

الافراد المغاربة كان أقام بالجزائر مدة، ولما رجع كان يردد بعض الكلمات التى علقت بذهنه أو بلسانه مما يستعمل فى الجزائر ولا يستعمل فى المغرب، وذات مرة وهو يتحدث الى البقال الذى يتعامل معه، قال له: قداش تسالنى يا فلان ؟ أى كم لك علي؟ فمد البقال ذراعه في وجهه وقال له قدر هذا! فشكاه الى الوالي، ولما حضر ورآه الوالي يصطنع اللهجة الجزائرية ويتزيى بزي أهلها قال له كم أقمت فى الجزائر فأجابه سنتين، فقال اضربوه مائتين فما تخلص منه الا بمشقة، وهى نادرة وقعت فى طنجة وصاحبها كان معروفا بالاسم والعين عند أهلها الى حين قريب ولله فى خلقه شؤون .

شـــاب تقـــدمـــي

قال صـــديقي وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى: أقدم اليـــك الشاب التقدمى عزيز ادريس ، فقلت : أهلا وسهلا ، تشرفنا ، وقال الشاب : انني مسرور ، بمعرفتك يا أستاذ ، وقد طالما تقت الى ذلك حتى تفضل صديقي وصديقك السيد عبد الرحمان بتقديمي اليك، فقلت شكـــرا له على مسعاه الحميد، وقـــال الصديـــق بتخابث ، ما أظـــن أنه مسعى حميد ، ولكـــن عســـى وعســـى (1) ! واستغربت هذا الكلام مـــن صديقي وان كنـــت أعرفه كثير المزاح . وأمـــا الشاب فانه لم يلتفت الى كلامـــه وقال لى : علمت أنك تميل الى الدين ! فقلت ماذا ؟ وتدخـــل الـــصديق فقال : ان السيد عبد العـــزيز درس الصحافة وهـــو يشتغل بالتمثيل ولكنه قليل الدين كما نقول باللغة الدارجة ، فهو يسألك هل أنت متدين !؟ وقال الشاب : أف منك ألا تدع السخرية حتى في المواقف الجادة !

وأردت أن أغير مجرى الحديث، فقلت لصديقى : هو اسمـــه عزيز أو عبد العزيز ؟ فضحك الصديق ضحكة مدوية وقـــال :

(1) تلميح الى الآية الكريمة وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ،

ان والده السيد ادريس سماه عبد العزيز، ولكنه يقول : انه حر ، لا يرضى أن يكون عبدا لاحد ، فهو يسمى نفسه عزيزا ، وكم من معركة قامت بينه وبين والده على هذه القضية ، فهو يصر على أن لا يدعى الا بعزيز ، ووالده لا يدعوه الا عبد العزيز، فلا يستجيب له، ولما رآه يسمي نفسه عزيز ادريس قال له : ان ادريس هو اسمى أنا ، وأما أنت فابن ادريس ، ألا ترضى أن تكون ابنه ؟ وكان ما أجابه به هو اننا ذات واحدة ، فاسمك هو اسم لي أيضا ، وقال له والده : واسمك الا يكون اسما لي ؟ قال طبعا ، قال : فأنا اذن ادريس عبد العزيز ! قال : لا ، أنت ادريس ادريس، لان جدي اسمه ادريس فيجوز أن تتخذ اسمه تعريفا لك ، فقال والده : يعنى أنا ادريس مرتين ، قال نعم ! قال : أفلا أقول ادريس الثانى! قال : لا ، هذه خاصة بالملوك ، ولكن يمكن أن تقول : ادريس ب !..

ثم قال الصديق : ووالده رجل طيب ، كلما خاض معه في حديث وأجابه بهذه الصفاقة ، طوى على ما به وبقي هو على تعنته ، فقال الشاب : دعنا من خرافة الوالد ، فان عقليتك وعقليته واحدة ! أجاب الصديق : وهذا من التقدمية يا سيد

عزيز ؟! وقلت وأنا أقصد الى تلطيف الجو : يظهر أن الحجاب بينكما مرفوع ، فقال الشاب من غير اكتراث : اننا فى صراع دائم من هـذا القبيل . ان السيد عبد الرحـمان وان كان ما يزال شابا يحمل مع الاسف أفكارا رجعية تكاد لا تجعل فارقا بينه وبين أكثر الناس جمودا على القديم ، وقال هذا الاخير موجها الكلام الى الشاب : لعل ما ينقصنى لاكون شابا تقدميا مثلك هـو أن أمر على سـوق «قلب شقلب» (I) فأتزين ببذلة فضفاضة من هناك وأضع لفة من الورق فى دورة المياه ، وأقول عن والدى انه خرافة ! ..

وظننت أن الشر سيثور بينهما بعد أن وصلا الى هذا الحد من التنابز ، ولكني دهشت لرؤية الصديق يبتسم ابتسامته المعهودة والشاب ينتزع منه الكلمة ليقول فى غير مبالاة بما سمـع : ان هذا يا أستـاذ ، ومن على شاكلته ، يعتقـدون أن الوالدين شيء مقدس ، وأن كلامهما يجب أن لا يخالف ، وهم يسبغون عليهـما وعلى كل شيء فى الحياة صفة دينية تستلـزم الطاعة والخضوع ، فلا يمكن أن نتناقش فى أمر ولا يقحم حكم الدين فيه ، العلم ، الصناعة ، المال ، الحكم ، المرأة ، الزواج،

(I) هو سوق الملابس المستعملة الواردة من أمريكا أطلق عليه العموم هذا الاسم لان المشترى يقلب البذل بعضها على بعض وهو يختار منها ،

الموسيقى ، حتى ارتياد شاطىء البحر للفسحة عنده له حكم ديني ، وقد كره الينا هو وامثاله الدين وكل ما يمت اليه بسبب ، ولذلك اردت أن أعرف رأيك فى الدين عندما خاطبتك أولا بما علمت من ميلك اليه ، ولكنه شغلنا بهذه السفسطة خشية ان ننتهي من المذاكرة في الموضوع الى نتيجة لا تروقه ، وقهقه الصديق وقال : أتظن الاستاذ ممن يعبد الله على حرف ، فهو بمجرد مهاترتك ولا أقول مذاكرتك سينقاد فى حبلك ويوافقك على عجرك وبجرك ؟ وأخذت الكلمة فقلت للشاب : ان الناس قبل جيلنا هذا كان الدين هو فلسفتهم الحياتية ، فكانوا يحكمونه فى كل شأن من شؤونهم ، وكانوا لذلك سعداء ، لانه ألف بين قلوبهم وجعل منهم مجتمعا ذا طابع خاص لا تنافر بين أفراده ولا تخالف . . ونحن اليوم نعيش بلا فلسفة أو على فتات الموائد الفلسفية المعاصرة، ولذلك كثر بيننا النزاع الذى يفضى الى التقاطع والبغضاء والعداء وأصبحت وحدتنا الوطنية مهددة شأن المجتمعات المفككة التى تدفعها الفوضى واللامسؤولية ،

قال الشاب : علينا اذن أن نضع لنا فلسفة جديدة تقوم مقام الدين في العهد البائد أو نتبنى فلسفة كاملة من

الـفلسفات العـصرية التي سمت باصحـابها الى أوج التقـدم والإزدهـــار .

وقال الصديق : ان عدوك رقم واحد هو الدين ! فما بالك وقـد انسلخت منه تريـد الناس كلهم أن ينسلخـوا منـه ولا تـكتفـى بنفسك ؟ أتظن أن العـالم كلـه عـلى مثل عدائـك للدين ؟ ؟ ...

ونظر اليه الشاب نظرة اشمئزاز ثم توجه الي فقلت لـه : أما أن نتبنى احدى الفلسفات المعاصرة فما أظن ذلك بنافعنا شيئا ان لـم يزد فى شقائنا ومحنتنا ، لان هذه الفلسفات قـد فصلت على أصحابها وهم قد عاشوا أطوارها المختلفة من نشـوء ونمو الى نضج واستواء ، فلم يشعروا بنشاز فيما بينها وبين حياتهم اليومية ، وأنت اذا أردت أن تطبق القانون الفرنسـى على الشعب الايطالى مثلا تكون قد ظلمته ، لان القوانين مـن صميم حياة الشعوب وعناصر تكوينها المادى والمعنوى ، هـذا وفرنسـا وايطاليا شعبان لاتـينيان أوربيان دينهما واحـد ، وأحوالهمـا الاجتماعية والاقتصادية متشابهة ، فكيف بشـعب مثل المغرب تختلف مقوماته كل الاختلاف عن فرنسا اذا أردت أن تحكمه بالقانون الفرنسى أو بأى قانون أجنبي آخر ؟ وما

قيل فـى القـانون يقال في باقـى شعب الفلسـفة الحياتيـة المستوردة .

واما أن نضع لنا فلسفة حياتية جديدة فلا من ينازع فـى ذلك، ولكن لا نقول انها تقوم مقام الدين ، لان الدين له دوره فى الحياة ، لا تغني عنه الفلسفة ، كما أن الفلسفة لا تغنـي عن الـعلم ، والواجب أن تتساند هذه الـقوى الخلاقة ليتهـيأ للشعب عيش أرغـد وحياة أفضل . قال الشاب : اننا لا نريـد أن تعود للدين السيطرة الكاملة على جميع مظاهر حياتنا حتى كيف نقـص شعرنا وما نلبسه من أنواع الثياب ، فقلت لـه : ان للدين عزائم ورغائب ، وهو اذا كان لا يتسامح في الاولى فانه يكـل الثانية الى ما يصطلح عليه الناس ويتفق وميولهـم الشخصية فلا تفرضوا آراءكم على غيركم فان لكل واحد مـذهبه ومشربـه ، ومسألة قص الشعر ألا تـرى هؤلاء الافواج مـن الشباب الذين أخذوا يوفرون ذقونهم اعلانا عن أنهم من اتباع فلسفة ما ، والذين يقلدونهم اعتباطا حتى كاد اطلاق الذقـن يصبح عـلامة على ثقافة الشبـاب ومثاليته، انهم قبل الآن لـو أتيتهم بكل ما قاله الانبياء والفقهاء في اعفاء اللحى لما قبلوا منك ولا استمعوا اليك، ولكنهم لما اصطلحوا على ذلك صـاروا

يتباهون به فيما بين أقرانهم ، فلماذا لا تحملون غيركم على هذا المحمل وتحترمون ذوقهم على الاقل ؟ وحاولت أن أداور الشاب عن رأيه فسألته : ان صديقنا ذكر أنك تشتغل بالتمثيل ، فهل مثلت يوما دور أحد رجال الدين ؟أجاب : نعم مثلت تارتوف ورأسبوتين ! قلت : ألم تقم بدور آخر يساند الدين وينشر فضيلته بين الناس ؟ أجاب : لا ، ان التمثيل فن تقدمي يحارب الرجعية ولا يتقمص الدعاية الدينية ! قلت : كيف وهذه محطات الاذاعة ما تفتأ تقدم في كل مناسبة تمثيليات دينية مؤثرة ؟

قال : تعني ذلك الهراء الذى يسمونه قصة نوح وابراهيم وموسى وما أشبهها ! فهل استمعت الى مثله قط في الاذاعة التقدمية كاذاعة موسكو وبلغراد ؟ قلت : ان محطة موسكو تذيع تمثيليات دينية من نوع آخر تمثيليات تمجد الشيوعية وتشيد بأياديها على الشعب الروسى وتقدس الحزب وقادته الى درجة العبادة، فهي تبشر بالمذهب بدل الدين وتحل البروليتاريا بدل الكهنوت ! قال : انك تبالغ ياأستاذ ، قلت : أخبرني عن ضريح لينين هذا الذى جعل الشيوعيون منه محجا للعموم وصاروا يتباهون بعدد من يؤمه يوميا من آلاف الزوار ،

أليس هــو مظهر من مظاهر تقديس الفكرة الشيوعية وعبــادة الاشخاص التى تعد بحق رجعية وتعلقا بالاوهام ؟ فأين هــي المبالغة ؟

وهنا قال الصــديق وأخذ بيد الشاب يخاطبه : لعمرى مــا تريدون الا أن تنقلوا الشعب المسكين من عبادة الله الى عبادة أحد زعانفتكم كما فعل أشياعكم هؤلاء .

كلمـــات معبـــرة

- نافق الناس بعضهم بعضا فكذبوا ونافقـوا انفسهم فحمقوا ونافقـوا ربهـم فكـفـروا .

- الذى يضمن خلود الحقيقة هو انه لا يكون هناك مؤرخ واحد .

- هذا المتعصب لرأيـه، لو تواضع لله فقط لا غير، لعلم أن كلماته تعالى هى التى لا تبديل لها .

- ما أحرى وصف الدبلوماسي ان يـكون مـركبـا مـــن كـلمـتيـن الدبلـوم والالمـاس .

- لما كان اسم الحكومة مؤنثا، كانـت بحاجـة الى رقـيـب .

- قد تكون الشهرة من التشهير، الا ينتحر بعض الناس لتنشر أسماؤهم فـى الـجـرائـد ؟

- اذا اقبل عليك السياسي فاعرف أن حظـوظه فـى النجاح أصبـحت ضئيلـــة .

- بعض الوزراء صلتهم بالوزر أقـوى منهـا بـالازر

- بعض النواب انما هم أنياب .

- انما قالت الآية الكريمة (وائتمروا بينكم بمعروف) لان أكثر الائتمار يكون بخلاف ذلك ، فالعلاقة بين المؤتمرات والمؤامرات وثيقة جدا .

تصحيح بعض الاخطاء المطبعية الواقعة في هذا الكتاب

الصفحة	السطر	الخطا	صوابه
16	1	بعـــد	يعـــد
20	1	لا يصح	لا يصلح
20	19	معادة	معاداة
13	22	بواتبـه	بواتيه
18	22	الغربى	العربى
23	17	ولم يقفه	ولـم يعقـه
24	8	سقط من هنا العبارة التـــاليـــة : مع ما انضم الى ذلك من ظهور الدعوة المروانية فى الاندلس واقتطـاع هـذا الجـزء من خلافـة المسلميـن في المشـرق الذي انقطع بسببـه أمـل مواصلة ... الخ	
27	14	المفايير	المعايير
29	3	كماشية	كناشية
35	5	فـيمـا	فيهما
37	8	مـــن	عـــن
41	3	صـــوف	تصـــوف
47	3	كـــون	تكون
49	6	ولا من هذا التمحل	ولا أقبح من هذا التمحل
50	16	وهبـــو	وهـــو
52	7	عاميتنا والمعجمي	عاميتنا والمعجمية
61	4	أهيـــ	أهـــلا
62	15	معمـــولان	محمولان
63	3	أن لـــه	أنه له
63	5	موافقـة	موافقته
63	6	مناقبتـه	مناقشته
64	4	أكثـــر	أكثره
67	2	فعالـت	فقالـت
67	10	تفسير	تفسيره
69	16	كتابه	كتابيه
73	18	للاغراض	للاعراض

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
78	15	سعيد النعم	معيد النعم
79	12	العصب	الصعب
82	3	الصدق	الصديق
92	5	من شعره	من شعر
100	10	يشمـــل	يشتمل
115	8	هذا البيت يقرأ كالتالى	
		شاكي سلاح القد واللحظ في	حرب ش.ج عن صبره اعزل
115	11	شبـــج	شـــج
126	1	طريقها	طريقهما
127	17	بنى مرين	بني مرينا
137	15	الزيادة	الريادة
138	4	مرعاة	مراعاة
139	15	ما يكون له أصيل	ما يكون له جذم أصيل
141	11	واقـــرأوا	واقروا
142	14	عبـــث وكيد	عبث وليد
151	3	لابـــن بصـــ	لابن بصال
151	15	بتغيير	بتعبير
152	3	امـــا	انمـــا
153	2	صيغـــة	صيغته
153	12	أب	آب
157	1	آخـــر	أخـــر
158	7	ستـــة	سنة
161	15	بعلمـــه	بعمله
162	8	المستعمرين	المستهترين
165	2	الغربين	الغربيين
166	16	داخل الكعبة فيها تمثال	داخل الكعبة تمثال
168	3	بأنه من العلماء	بأنه من عمل العلماء
170	15	هـــذه	هـــذي
176	10	للائمة	بالائمـــة
190	13	أق	أف
191	7	ابنـــه	ابنى
196	5	ورأسبوتين	وراسبوتين

فهرست الكتاب

كتب للمؤلف

ظهر للمؤلف الكتب الآتية :

أولا : في الدراسات الادبية والتاريخية :

- النبوغ المغربي في الادب العربي ثلاثة أجزاء
- ذكريات مشاهير رجال المغرب سلسلة صدر منها 40 حلقة
- أحاديث عن الادب المغربي الحديث
- شرح الشمقمقية
- شرح مقصورة المكودي
- المنتخب من شعر ابن زاكور
- أمراؤنا الشعراء
- التعاشيب
- واحة الفكر
- خل وبقل
- العصف والريحان
- ازهار برية
- سابق البربري
- لقمان الحكيم
- لوحات شعرية
- من ادبنا الشعبي
- أربع خزائن لأربعة علماء من المغرب
- مدخل الى تاريخ المغرب
- أدب الفقهاء
- نظرة في منجد الآداب والعلوم
- القاضي عياض بين العلم والأدب

الايداع القانوني رقم 1986/5

ثانيا : في الدعوة والدراسات الاسلامية :

- فضيحة المبشرين
- مفاهيم اسلامية
- محاذي الزقاقية
- القدوة السامية للناشئة الاسلامية
- اسلام رائد
- على درب الاسلام
- منطلقات اسلامية
- تحركات اسلامية
- شؤون اسلامية
- الرد القرآني على كتيب هل يمكن الاعتقاد بالقرآن ؟
- معارك
- الاسلام اهدي
- تفسير سور المفصل من القرآن الكريم
- جولات في الفكر الاسلامي

ثالثا : نشر وتحقيق :

- رسائل سعدية
- ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث
- عجالة المبتدي في الانساب المحازمي
- ترتيب احاديث الشهاب
- قواعد الاسلام للقاضي عياض
- تلقين الوليد الصغير لعبد الحق الاشبيلي
- شرح الأربعين الطبية لعبد اللطيف البغدادي
- الأنوار السنية في الألفاظ السنية لابن جزي
- رسالة نصره القبض للمسناوي
- شرح ميارة على الجمل
- التيسير في صناعة التسفير للاشبيلي
- مناهل الصفا للفشتالي

مطابع البوغاز، ش. م.
6 ـ أ، شارع هولندة (عمارة فنزويلا) ـ طنجة ـ المغرب